مجلـــة العلـــوم التربـــوية والدراســـات الإنســـانيـــة
ISSN: 2709-0302 (online)
Humanities and Educational Sciences Journal
ISSN: 2617-5908 (print)

موازين القرآن بين المدافعة والعاقبة (دراسة موضوعية)(*)

د/ فكري عبد الله عبد الجليل الحكيمي
الأستاذ المشارك بقسم علوم القرآن- كلية التربية
رئيس قسم معلم الصف للتعليم الأساسي سابقاً
جامعة تعز- اليمن
fekryut@hotmail.com

*) تاريخ تسليم البحث 15/1/2022 تاريخ قبوله للنشر 15/2/2022
*) موقع المجلة: http://hesj.org/ojs/index.php/hesj/index

موازين القرآن بين المدافعة والعاقبة
(دراسة موضوعية)

د/فكري عبد الله عبد الجليل الحكيمي
الأستاذ المشارك بقسم علوم القرآن- كلية التربية
رئيس قسم معلم الصف للتعليم الأساسي سابقاً

ملخص البحث

إن الناظر في آيات القرآن نظر تأمل وتدبر، يجد أنها تمضي في خط واحد وتسعى لهدف محدد، مما يبرز صورة متكاملة عن قضية كلية لها ملامحها وسماتها ولها أصول جامعة ونظائر متناسقة، ومن ذلك قضية التدافع والمدافعة بين الخلق حيث جعلها المولى سبحانه وتعالى سنة من سننه لموازين واعتبارات متنوعة لينتج عنها نتيجةً (عاقبة نهائية) تختلف لاختلاف من التزم بتلك الموازين، وحافظ عليها ممن أهملها، وتؤكد هذه الدراسة بأنه كما تختلف الرؤى والأفكار فكذلك قد تختلف بعض المفاهيم البشرية لبعض القضايا القرآنية كقضية المدافعة وعلاقتها بالعاقبة كنتيجة، تختلف باختلاف تطبيق الخلق لموازين ربانية، وجوانب إيمانية جاء بها القرآن الكريم. ويقع البحث في مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة.

الكلمات المفتاحية: المدافعة، العاقبة، القرآن، الميزان القرآني

The Qur'anic Measurement of the Fight between Right and Wrong and the Outcome of it (an objective study)

Dr. Fikri Abdullah Abdul-Jalil Al-Hakimi
Associate Professor, Department of Quranic Sciences - College of Education
Former Head of the Class Teacher's Department for Basic Education

Research Summary

The one who looks at the verses of the Qur'an, contemplates and contemplates, finds that they proceed in one line and seek a specific goal, which highlights an integrated picture of a comprehensive issue that has its features and characteristics and has comprehensive origins and coherent counterparts, and from that the issue of defense and defense among creation, where the Lord Almighty made it a year of His ways. There are various scales and considerations in order to result in a result (final consequence) that differs according to the difference of those who adhered to those scales, and preserved them from those who neglected them

This study reassures that as visions and ideologies differ, so do some understandings of some Qur'anic issues. Such as the issue of the fight between right and wrong, and its relation to the consequences of the result of this fight
The study contains: an introduction, a preface, two chapters, and a conclusion
Key words: Qur'an, Qur'anic measurement, consequence, the fight between right and wrong.

مقدمة:

الحمد لله الذي نوّر بالقرآن القلوب، وأنزله في أوجزِ لفظ وأعجزِ أسلوب، فأعيت بلاغته البلغاء، وأعجزت حكمته الحكماء. أحمده -سبحانه- وهو أهل الحمد والثناء، والصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله المصطفى، ونبيه المرتضى، معلم الحكمة، وهادي الأمة، صلى الله عليه وعلى آله الأبرار، وصحبه الأخيار، ما تعاقب الليل والنهار، وسلم تسليماً كثيرا، وبعد:

من الأهمية دعوة المسلمين إلى قراءة القرآن قراءة جديدة تتوافق مع قضايا العصر، ومتطلباته تحت مظلة الشريعة وثوابتها وأصولها ولا بد أن يزيل المسلم الجفوة فيما بينه وبين كلام الله (القرآن الكريم) من خلال كثرة تلاوته وتدبره وتمسكه بأحكامه وحدوده.

تجديد الصرخة التي أطلقها الإمام المجدد الشيخ محمد الغزالي في كتابه الرائع (كيف نتعامل مع القران) التي أعلنها صريحة واضحة بأنه لا بد لنا من تعامل جديد مع القرآن وتدبره لينير لنا الطريق إلى سعادة الدارين.

إن المتدبر لآيات القرآن الكريم التي تتناول الدنيا وزخرفها ومتاعها، واللبث فيها يجد بأنه يصفها بالقليل والزائل واليسير ولا وجه مقارنة بينها وبين الدار الآخرة الباقية الأزلية الخيّرة.

أسباب اختيار الدراسة:

- أراد الباحث من خلال هذه الدراسة إبراز الجانب العام للميزان القرآني (الإيمان والعمل الصالح والقرب من الله والصبر والابتلاء ...الخ) إذ هو الميزان الواضح في التفاوت بين المدافعة والعاقبة أياً كان نوعها أو جنسها أو عددها.
- وأراد الباحث من إبراز هذا الميزان القرآني في هذا العصر الذي غلبت فيه المادة على الروح وفهم الناس بأن الكثرة هي الغالبة مطلقاً وأن القلة مهملة وليست بشيء.
- أراد الباحث لفت الانتباه إلى إعادة قراءة القرآن قراءة تدبرية للانتفاع به، بحيث تختلف عن القراءة التقليدية ونثر القرآن كنثر الدقل.

وخاصةً عندما اعتنى الناس في الأزمنة المتأخرة بقراءة القرآن من حيث حسن الصوت وأداء المقامات مع ترك التدبر والانتفاع بآياته وهداياته، وهو المقصد الأسمى من تنزل القرآن قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩].

في الوقت الذي تخاطب بعض الفلسفات في الإنسان عقله، وأخرى تخاطب قلبه، فإن القرآن الكريم في خطابه يحقق التوازن في مخاطبة العقل والقلب معاً؛ فيجمع بذلك الحق والجمال معاً، فلا يبغي بعضهما على الآخر.

وسنة (المدافعة) هذه السنة التي لا تجعل الخير خامداً ساكناً في حيز أو جهة كما لا تسمح للشر أن يكون كذلك فبينهما من التزاحم والتدافع ما ينشط الحياة ويطلق الطاقات المذكورة في عقول البشر ودمائهم حتى تحقق نتائج وعواقب بموجب موازين قرآنية بين المدافعة والعاقبة.

أهمية الدراسة:

- دراسة موازين قرآنية بين المدافعة والعاقبة وتناولهما بالدراسة والتحليل هو نوع من أنواع التفسير الموضوعي.
- تصحيح ما علِق في أذهان الناس حول المدافعة وعلاقتها بالعاقبة بغض النظر عن القلة والكثرة.
- ارتباط مفاهيم الدراسة بحياة الناس من جوانب عدة، كونها من الموضوعات المعاصرة.
- التأكيد على مرجعية القرآن الكريم للمسلمين في تصوراتهم ومنطلقاتهم، ففيه الحكم لكل قضية والفصل لكل مسألة، تهم الناس في معاشهم ومعادهم.
- مدى حاجة المسلمين إلى التصور الصحيح لقضية التدافع وعلاقته بموازين قرآنية تعطي نتيجة العاقبة.

الدراسات السابقة:

وعن الدراسات السابقة، لم يقف الباحث (فيما بحث ونظر) على أي دراسة مستقلة تناولت دراسة موازين قرآنية بين المدافعة والعاقبة وتناولهما بالدراسة والتحليل مع الربط بينهما.

ولكن كانت هناك دراسات عامة تتناول السنن الإلهية مثل:

- السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن (أصول وضوابط) لمحمد محمد عاشور.
- رسالة ماجستير بعنوان: التدافع في القرآن الكريم (دراسة موضوعية) للباحثة: هيا المطيري، الجامعة الأردنية، عام ٢٠١٥م.
- رسالة ماجستير بعنوان: سنة التدافع في ضوء القرآن الكريم للباحث: خالد الزهراني، جامعة أم القرى، عام ١٤٢٨هـ.
- السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، د. عبدا لكريم زيدان (١٤٣٤هـ-٢٠١٣م).
- إضافة إلى أوراق عمل بحثية مقدمة لمؤتمرات إسلامية بما يتعلق بالتدافع والتمكين كدراسات إسلامية فكرية عامة وليست بموضوعية تفسيرية كهذه الدراسة.

وبحسب اطلاع الباحث فقد كانت تلك الدراسات أغلبها دراسات فكرية أكثر منها دراسات موضوعية تفسيرية، حيث تناولت موضوع سنة التدافع بحيثياتها المعاصرة مع بعض الأقوال للمفسرين، ولكن الباحث اعتمد في دراسته هذه على الدراسة الموضوعية التفسيرية بدراسة مستقلة تناولت موازين قرآنية بين المدافعة والعاقبة مع تناولهما بالدراسة والتحليل والربط بينهما.

منهجية الدراسة:

كما استخدم الباحث المنهج الوصفي؛ القائم على الاستقراء والتحليل والاستنباط.

هيكل البحث:

اقتضت طبيعة الدراسة أن تُقسَّم إلى: مقدمة، وتمهيد ومبحثين، وخاتمة، وهو على النحو التالي:

مقدمة وتتضمن: أسباب اختيار الموضوع، أهمية الدراسة، الدراسات السابقة، منهجية الدراسة، هيكلة الدراسة.

والتمهيد: يتضمن تعاريف أهم مصطلحات الدراسة.

(المدافعة، العاقبة، القرآن، الميزان القرآني).

المبحث الأول: أسس موازين القرآن بين المدافعة والعاقبة.

المطلب الأول: المقياس العام وميزان التفاضل بين الخلق في القرآن.

المطلب الثاني: التمكين لدين الله وأهله في الأرض.

المطلب الثالث: العاقبة نتيجة حتمية للمدافعة في الدنيا ة الآخرة.

المطلب الرابع: أهمية معرفة موازين القرآن بين المدافعة والعاقبة.

المبحث الثاني: موازين القرآن بين المدافعة والعاقبة.

المطلب الأول: ميزان الإيمان والعمل الصالح.

المطلب الثاني: ميزان الصبر والابتلاء.

المطلب الثالث: ميزان الجهاد ونصرة الدين.

المطلب الرابع: ميزان التوكل، والأخذ بالأسباب، ومعية الله.

المطلب الخامس: ميزان العدالة ونصرة المظلوم.

ثم الخاتمة (أهم النتائج والتوصيات) فالمصادر والمراجع للدراسة.

والحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، أحمده سبحانه وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وهو الغفور الرحيم.

التمهيد:

خلق الله الناس مختلفين أجناساً وألواناً والسنة، متفرقين شعوباً وقبائل، خلقهم من أصل واحد، والأصل اللائق بهم هو: التعارف والتواد والتراحم والتعاون والتناصر والتعايش في ظل التآخي والإنسانية، أليسوا أبناء رجل واحد وامرأة واحدة (آدم وحواء)، وقد جعل الله التدافع بينهم ليبلوا بعضهم ببعض، قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٤].

ولتهيئة من يصلح للتمكين لدين الله في الأرض كلما فسدت الأمم، لأنه سبحانه قبل ذلك قد مكن الإنسان من العيش على الأرض وأعطاه القدرة على عمارتها واستثمار ما فيها والانتفاع به في معاشه ومعاده، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

إن الناظر في آيات القرآن نظر تأمل وتدبر، يجد أنها تمضي في خط واحد وتسعى لهدف محدد، مما يبرز صورة متكاملة عن قضية كلية لها ملامحها وسماتها ولها أصول جامعة ونظائر متناسقة، ومن ذلك قضية التدافع والمدافعة بين الخلق حيث جعلها المولى سبحانه وتعالى سنة من سننه لموازين واعتبارات متنوعة لينتج عنها نتيجةً (عاقبة نهائية) تختلف لاختلاف من التزم بتلك الموازين، وحافظ عليها، قال تعالى: ﴿والعاقبة للمتقين﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، أو من فرط بها ولم يسير على منوالها، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام:١١]، وقال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥١].

وقد بين لنا المولى سبحانه وتعالى في أكثر من موضع أن التدافع والمدافعة بين خلقه كما يكون بالابتلاء، فكذلك يكن للفتنة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢/٥٣].

ومن خلال هذا التمهيد تتناول هذه الدراسة أهم مصطلحاتها:

(المدافعة، العاقبة، القرآن، الميزان القرآني)

تعريف المدافعة لغة واصطلاحاً:

المدافعة لغة:

المدافعة من دفعه يدفعه دفعاً: رده بقوة أو ساقه أمامه. والمدافعة: المزاحمة. والاندفاع: المضي في الأمر.

ودفع عن ماله أو دينه: دافع عنه وحماه ومنع الناس أن يعتدوا عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨]، أي: يحميهم ويرد أعدائهم عنهم، وقال تعالى: ﴿مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [الطور: ٨]، أي: من راد يرده ويمنعه.

الدفع: الإزالة بقوة، والدفع: إذا عُدي بعن اقتضى معنى: الحماية.

ودفع الباطل[1]: أبطله ومحقه وأزاله، قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]، أي: نسلطه عليه ليبطله، وزهق الباطل: زال وبطل، فهو زاهق وزهوق؛ زهوق: صيغة مبالغة، أي: سريع الزوال، قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

(١) أنظر: ابن منظور، لسان العرب ٢٥٩/١٣، إبراهيم أحمد عبدالفتاح، القاموس القويم، ص١٨١، ٣٩٩، ٢٢٤، السجستاني، غريب القرآن، ص٩٨.

المدافعة اصطلاحاً:

والتدافع والمدافعة من المصطلحات الحديثة التي ظهرت في بعض الدراسات المتأخرة ويمكن أن نورد تعريفاً لبعض المفسرين من خلال تفسيرهم آيتا الدفع، قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠].

فقد ذكر محمد رشيد رضا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة:٢٥١].

تعريف التدافع بأنه تنازع البقاء، ولا يختص بالحرب والقتال فقط، بل هو عام لكل نوع من أنواع التنازع بين الناس، الذي يقتضي المدافعة والمغالبة(١).

وقال: ابن عاشور: أصل معنى الدفع الضرب باليد للإقصاء عن المرام، قال: فدفعتها فتدافعت وهو ذب عن مصلحة الدافع(٢).

ومنهم من عرفه بأنه الصراع والقتال بين الناس، بين الخير والشر، بين الحق والباطل، بين أمة وأمة(٣).

ومما سبق يتبين أنه ليس هناك اتفاق تام على ضبط هذا المصطلح.

ومما ينبغي أن يعلم أن كلمة التدافع والمدافعة لم ترد في القرآن، وإنما ورد كلمة دفع كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

إن العمل بهذه السنة وغيرها إنما هو جزء من عقيدة المسلم ليسلك المسار الصحيح في هذه الحياة للفوز بوعد الله وتحقيق المنهج الرباني بموازينه ليتأهل إلى التمكين وعمارة الأرض.

فغاية التدافع الذي أشار إليه القرآن الكريم وقام به أنبياء الله عليهم السلام ومن تبعهم من المؤمنين أهل الحق، في مواجه أهل الباطل ومدافعتهم، ومنع الفساد بأنواعه العقدي والمالي والمجتمعي والقيمي وغيره، أو على الأقل العمل على انحسار الفساد بإضعاف الباطل ودفعه.

فالتدافع بين الحق والباطل أمر محتوم إلى قيام الساعة؛ لأنه مرتبط بسنة ربانيه وفق موازين قرآنية لا تتخلف، بمعنى أنها حتمية قدرية لا تتخلف بالإضافة إلى أن طبيعة اختلاف البشر تقتضي هذا التدافع لاختلافهم بكثير من القضايا والأغراض الدينية والدنيوية.

ويرى الباحث، أن التدافع والمدافعة من سنن الله في خلقه، الضابطة والمهيمنة، والتي تجري باطراد وثبات، وعموم وشمول مرتباً على سلوك الخلق سلباً أو إيجاباً لتعطي العاقبة المستحقة.

تعريف العاقبة لغة واصطلاحاً:

العاقبة لغة:

العقب: مؤخرة عظم القدم وآخر كل شيء، ورجع على عقبه: ارتد وانقلب.

والعقب: العاقبة، والعقبى وآخر كل شيء وخاتمته، قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٤]، وعقبى أي: العاقبة.

العاقبة(٤): الجزاء وآخر كل شيء وخاتمته، وهو نوعان: فمن الجزاء بالشر قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، أي: جزاؤهم أو خاتمتهم الأليمة. أو نهايتهم، وعن الجزاء بالخير، قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. (أي: الجزاء الكامل أو الخاتمة الحسنة والنهاية السعيدة).

---

(١) انظر: محمد رشيد رضا، تفسير المنار ٣٩٤/٢.

(٢) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٥٠٣/٢.

(٣) انظر: الخطيب، السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك ١٧٠/٢.

(٤) انظر: إبراهيم احمد عبد الفتاح، القاموس القويم، ص، ٣٣٦، السجستاني، غريب القرآن، ص٣٤٤، ١٤١، ٢٥٢.

العاقبة في الاصطلاح:

العاقبة من كل شَيْءٍ آخِره، ومنه عَقِبُ الرَّجُل، ومنه العقوبة، لأنها تاليةٌ للذَّنب وعنه تكون، وقد وعد الله وعدا جازما أنها للمتقين، وهي هنا: النصر والظفر في الدنيا، والجنة في الآخرة، والدليل على أنَّ المراد هو العاقبة في الدنيا قبل الآخرة أن الله ذكر ذلك عقب قصة نوح، ونصَرَه بعد صبره على قومه، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩]، أي أن عاقبة النصر لك ولمن معك، كما كانت لنوح عليه السلام ومن آمن معه.

قال الطاهر بن عاشور: "فإذا عُرِّفَتْ العاقبة باللام كان المراد منها انتهاء أمر الشيء بأحسن من أوله، وذلك لأن كل أحد يود أن يكون آخر أحواله خيراً من أولها لكراهة مفارقة الملائم، أو للرغبة في زوال المنافر، فلذلك أطلقت العاقبة مُعرَّفة على انتهاء الحال بما يسر ويلاءم، كما قال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةَ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢]، وفي حديث أبي سفيان قول هرقل: "وكذلك الرسل تُبتلى ثم تكون لهم العاقبة"، فلا تطلق المعَرَّفَة على عاقبة السوء، فالمراد بالعاقبة هنا عاقبة أمورهم في الحياة الدنيا لينناسب قوله: ﴿إِنَّ الْأَرْض لِلَّهِ يُورِثهَا مَنْ يَشَاء مِنْ عِبَاده﴾، وتشمل عاقبة الخير في الآخرة لأنها أهم ما يلاحظه المؤمنون، وجيء في جملتي: ﴿إِنَّ الْأَرْض لِلَّهِ يُورِثهَا مَنْ يَشَاء مِنْ عِبَاده﴾، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بلفظين عامين، وهما:﴿مَنْ يَشَاء مِنْ عِبَاده﴾ و﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، لتكون الجملتان تذييلا للكلام، وليحرص السامعون على أن يكونوا من المتقين»[(١)].

تعريف القرآن لغة واصطلاحاً:

القرآن لغة: مصدره كالقراءة، ومعناه الجميع، وسمي القرآن الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم قرآناً، لأنه يجمع السور ويضمها.

وقد اتفق أهل العلم على أن لفظ (قرآن) اسم وليس بفعل ولا حرف، لكنهم اختلفوا فيه من جهة الاشتقاق أو عدمه، ومن جهة كونه مهموزاً أو غير مهموز، ومن جهة كونه مصدراً أو صفاً على أقوال ليس المقام لبسطها هنا[(٢)].

القرآن اصطلاحاً: كلام الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم المعجز بلفظه، المتعبد بتلاوته، المكتوب في المصاحف المنقول إلينا بالتواتر[(٣)].

وهو جميعه بسوره وآياته وكلماته كلام الله تعالى تكلم به أسمعه لرسوله جبريل عليه السلام، منزل به جبريل مبلغاً إياه سمعه لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وكما قال الله عز وجل[(٤)]: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ(١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ(١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ(١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ(١٩٦)﴾ [الشعراء: 192/١٩٦].

مفهوم الميزان القرآني:

الميزان: آلة الوزن، أو الصنجات التي توزن بها الأشياء، ويطلق الميزان مجازاً على العدل وعلى الشريعة، قال تعالى: ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وهو الميزان الحقيقي المعروف قال تعالى: ﴿الله الذي انزل الكتاب بالحق والميزان﴾ [الشورى: ١٩]، أي والعدل أو الشريعة.

ووضع الميزان، كما في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧]، قد يأتي بمعنى العدل، ووضعه أي شرعه وجمعه موازين[(٥)].

وميزان القرآن لا عوج فيه، فقد قال تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨]

فمن خلال عرضه لبعض القضايا والظواهر نراه بأنه يخبرنا إلى عواقب تلك القضايا والظواهر بمنظور آخر يختلف عن فهم الإنسان وحكمه لتلك القضايا والظواهر حيث يفهمها بأحكام وقتية دنيوية مادية بسيطة.

---

(١) أنظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير٩/٦٠

(٢) مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ص١٩.

(٣) المرجع السابق، ص٢٠

(٤) الجديع، المقدمات الأساسية في علوم القرآن، ص١٠.

(٥) إبراهيم أحمد عبد الفتاح، القاموس القويم، ص٥٧٢.

أما ميزان القرآن فإنه يرجعها إلى حكمة إلهية أو سنة في الخلق كونية أو هدف إيماني وروحي تجعل العبد يتعلق بخالقه ويزداد إيمانه.

فمثلاً: اتفقت مفاهيم البشر حول الكثرة والقلة، فالكثرة عندهم دليل القوة والغلبة والقلة دليل الضعف، ولكن الميزان القرآني يختلف عن هذه النظرة، وكذلك يفهم الإنسان بأن كثرة المال دليل للتكريم والتفضيل والخوف من الله، وقلته تدل على الإهانة، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾ [الفجر: من ١٥ إلى ١٧].

أما الميزان القرآني فانه يختلف عن ذلك حيث يجعل المعيار والمقياس ليس في كثرة المال وقلته بل في الإيمان والعمل الصالح والقرب من الله، وهكذا بقية القضايا والظواهر، فان لها موازين ربانية تخضع لها ومن ذلك قضية التدافع بين الخلق وعاقبة هذا التدافع كنتيجة نهائية تتكرر بين الأمم والأزمنة.

وهذا ما تتناوله هذه الدراسة من خلال مبحثين لاحقة.

المبحث الأول: أسس موازين القرآن بين المدافعة والعاقبة

أراد الباحث من خلال هذا المبحث توضيح الأسس العامة لموازين القرآن بين المدافعة والعاقبة، والفهم الصحيح لهذه السنة الإلهية بين مجتمعات البشر من منظور قرآني.

وسنة التدافع والمدافعة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

هذه السنة الاجتماعية التي تحكم التجمعات البشرية يلمح الإنسان أثرها الفاعل في كل زمان ومكان حيث يسلط الله الظالمين بعضهم على بعض، وتكون بذلك فرصة لنجاه المستضعفين ونمو الخير وحماية أهله(١).

وتشير الآية الكريمة إلى سنة من سنن الله هي سنة (المدافعة) هذه السنة التي لا تجعل الخير خامداً ساكناً في حيز أو جهة كما لا تسمح للشر أن يكون كذلك فبينهما من التزاحم والتدافع ما ينشط الحياة ويطلق الطاقات المذكورة في عقول البشر ودمائهم.

وقد فهم بعض المفسرين أن التدافع يجري بين أهل الشر والفساد فيتحولون إلى فرقاء يحجّم بعضهم بعضا وهذا قصور، إذ أن الآيات السابقة على هذه الآية تحكي قصة المدافعة بين أهل الخير وأهل الشر، بل إن المشاهد في هذه الحياة يجد أن سنة التدافع عامة فهناك تدافع منوع يشتد كلما اشتد الخلاف بين المتدافعين ويضعف ويتهمش كلما اتحدت المنطلقات والأهداف إلى أن ترى شيئاً من التدافع في نطاق الأسرة الواحدة، وهذا التدافع ضروري لحفظ التوازن الحيوي على صعد الحياة كافة، فلا يطغى جانب على جانب ولا عنصر على عنصر آخر فمن خلال الفعل ورد الفعل يتم حفظ التوازن كما يتم استخراج أفضل الإمكانات المخبوءة، ومن هنا فإن أولئك الذين يحلمون بالعيش في عالم يسوده السلام والوئام ويخلو من الصراعات إنما يمرحون في حدائق من الوهم وأحلام اليقظة، فمفرزات العقائد ومعطيات التاريخ والصراع على الجغرافيا وإغراءات توزيع النفوذ كل ذلك يجعل من منع الصراع ضربا من المستحيل.

وإن العالم اليوم أشبه بكتله مضغوطة لا يمكن لجزء منها أن يتمدد لا على حساب جزء آخر(٢).

فكيف يمكن أن يستفيد المسلمون من سنة المدافعة حتى تستمر حياتهم حينما لا تكون الغلبة لهم، ولا تكون الحضارة لهم في مثل حالنا اليوم؟

حينما نتأمل في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] نشعر بأمرين:

الأمر الأول: أن الاختبار الإلهي ليست له صورة محددة، فصوره كثيرة متعددة، وعلى الإنسان أن يكون على استعداد دائم لكي يتحمل تبعات الدفاع عن معتقده وعن سيرته ومسلكه وقيمه.

الأمر الثاني: أن هذا التدافع هو طبيعة الحياة الفردية والاجتماعية، بمعنى أنه في الجسم البشري تفرض المناعة نفسها عندما تدخل جراثيم غازية، ويبدأ التدافع حتى يبقى الجسم حياً.

(١) أنظر: محمد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن.

(٢) أنظر: بكار، عبدالكريم، في إشراقات آية، ص٢٠٧.

الحياة الإنسانية، لابد فيها من هذا التدافع، هذا اللون من التدافع .. ربما تنشط أجهزة الإيمان وتتحرك فيه قواه الداخلية إذا كانت فاترة عندما يشعر بالتحدي، ويكون هذا سببا في إمداده بحياة جديدة. وهنا سنن الله الكونية التي يجب أن يخضع لها المسلمون والكافرون. اذ أن الحياة فيها هذا التصادم المستمر بين قوى ومبادئ مختلفة. وهكذا الحياة، يحاول الكفر أن يفرض نفسه، فتنشط قوى الإيمان لكي تبقى .. فيبقى الإيمان بعد أن نمت بضغط الكافرين عليه.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

هذا التدافع الحضاري، جزء من الاختبار الإلهي، وجزء من تمكين الخير من أن تزداد صلابته في مواجهة الشر.

الكتل الدولية، في كل فترة من الفترات، لو استقرأنا ذلك نلمح بأن الله سبحانه وتعالى لم يسلط على البشرية ظالماً واحدا إلا إذا كان هناك ظالم يواجهه ويدافعه .. فمن خلال الخصومات العالمية، والظلم العالمي، والمواجهات العالمية،يمكن أن تفسح فرج إذا أحسنا التعامل بما أسميناه: سنة المدافعة[١].

المطلب الأول: المقياس العام وميزان التفاضل بين الخلق في القرآن

فالمقياس العام وميزان التفاضل بين الخلق في القرآن ذكر في بيان آية شافية كافية صريحة بالميزان الحق الذي أثبته الحق سبحانه وتعالى ليتعايش الناس على منواله ووجهه الدقيق، قال تعالى: ﴿أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

أخبر أن أرفعهم منزلة عند الله أتقاهم فقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ قال قتادة في هذه الآية: إن أكرم الكرم التقوى، وألأم اللؤم الفجور.

والمعنى: خلقناكم أيها الناس من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لِتَعارَفُوا أي: ليعرف بعضكم نسب بعض، فينتسب كل فرد إلى آبائه، ولتتواصلوا فيما بينكم وتتعاونوا على البر والتقوى، لا ليتفاخر بعضكم على بعض بحسبه أو نسبه أو جاهه. وقوله- سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ تعليل لما يدل عليه الكلام من النهى عن التفاخر بالأنساب. أي: إن أرفعكم منزلة عند الله، وأعلاكم عنده — سبحانه – درجة، هو أكثركم تقوى وخشية منه – تعالى- فإن أردتم الفخر ففاخروا بالتقوى وبالعمل الصالح. إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بكل أحوالكم، خَبِيرٌ بما ترونه و تعلنونه من أقوال وأفعال[٢].

قال ابن كثير: فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهي طاعة الله ومتابعة رسوله – صلى الله عليه وسلم – ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضاً، منبهاً على تساويهم في البشرية: ﴿أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي: ليحصل التعارف بينهم، وإنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب[٣].

عن مالك الأشعري قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم: إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه، وإنما أنتم بنو آدم وأحبكم إليه أتقاكم[٤].

قال القرطبي: أتقاكم من التقوى، والتقوى معناه مراعاة حدود الله تعالى أمراً ونهياً، والاتصاف بما أمرك أن تتصف به، والتنزه عما نهاك عنه.

وفي هذه الآية ما يدلك على أن التقوى هي المراعى عند الله تعالى وعند رسوله دون الحسب والنسب[٥].

وهكذا، فكما تختلف الرؤى والأفكار فكذلك قد تختلف بعض المفاهيم لبعض القضايا القرآنية كقضية القلة والكثرة التي ربطها القرآن بموازيين وجوانب إيمانية تخالف نظرة الناس وفهمهم المعهود لها.

---

(١) أنظر: محمد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن.

(٢) أنظر: البغوي، معالم التنزيل ٤/٢٢٠.

(٣) أنظر: ابن كثير، تفسير القرآن ٤/٤٥٦.

(٤) صحيح مسلم، كتاب:البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم رقم ٢٥٦٩.

(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٦/٣٣٢.

فمن موازيين الكثرة والقلة في القرآن أن قلة أهل الطاعة تغلب كثرة أهل المعصية وقلة الفئة الإيمانية الروحية تغلب الكثرة المادية الطاغية، وقلة زاد الروح يغلب كثرة المادة.

فإذا تحلى القليل بالإيمان والطاعة والعبادة والقربة كان كثيراً في مقابل أهل الكفر والفسوق والعصيان وان كان أكثر.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧)﴾ [سورة الفجر: ١٥/١٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧)﴾ [سبأ: ٣٤/٣٧].

قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦)﴾ [يوسف: ١٠٦] .

فالميزان القرآني يرجح جانب الإيمان وأهل الطاعة والعبادة والعمل الصالح وإن كان قليلاً.

ولذا نجد في أكثر من موضوع في كتاب الله أن الفئة و القلة المؤمنة: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، المستهزئ بها (الشرذمة، الأرذلون) كان لهم الغلبة والظهور والرفعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤)﴾ [الشعراء: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١)﴾ [الشعراء: ١١١].

وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨].

قال السعدي: يرشد القرآن إلى أن العبرة بحسن حال الإنسان إيمانه وعمله الصالح وأن الاستدلال على ذلك بالدعاوي المجردة أو بإعطاء الله العبد من الدنيا أو بالرياسات، كل ذلك من طريق المنحرفين، والقرآن يكاد أن يكون أكثر تفصيلاً لهذه القاعدة.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ [سبأ:٣٧].

وقالَ تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

فالإيمان والعمل الصالح هو مقياس للرجل وهو الدليل على كمال حاله(١).

المطلب الثاني: التمكين لدين الله وأهله في الأرض

إن أول أساس يقوم عليه المجتمع المسلم ويقوم به هو العقيدة، عقيدة الإسلام: فمهمة المجتمع الأولى هي حماية هذه العقيدة، ورعايتها وتثبيتها ومد نورها في الآفاق.

وعقيدة الإسلام تتمثل بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فهي عقيدة تبني ولا تهدم، تجمع ولا تفرق، لأنها تقوم على تراث الرسالات الإلهية كلها، وعلى الإيمان برسل الله جميعاً ﴿وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾.

ولهذه العقيدة عنوان يلخصها أو شعار يعبر عنها هو: (شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله) فهذه العقيدة هي التي تمثل وجهة نظر المسلمين إلى الكون ورب الكون، والى الطبيعة وما وراء الطبيعة، والى الحياة وما بعد الحياة، والى العالم المنظور والعالم الغير منظور، وبعبارة أخرى: إلى الخلق والخالق، إلى الدنيا والآخرة، الى عالم الشهادة وعالم الغيب.

(١) أنظر: السعدي، القواعد الحسان في تفسير القرآن، القاعدة، ٦٣، ص١٨٠.

هذا الكون لم يخلق من غير شيء، ولم يخلق نفسه، فلا بد له من خالق عليم قدير عزيز حكيم خلقه فسوى، وقدر كل شيء فيه تقديراً، فكل ذرة فيه بميزان، وكل حركة فيه بمقدار وحسبان ...ذلك الخالق هو الله جلّ شأنه.

وإن الله جل شأنه قد اقتضت حكمته أن لا يدع الناس هملا، ولا يتركهم سدى، فأرسل إليهم ما بين حين وآخر مبلغين عنه يهدون خلقه إليه ويدلونهم عليه، ويرشدونهم إلى مراضيه ويحذرونهم من مساخطه، قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

كما أن من مهمة هؤلاء الرسل وضع القواعد والقيم والموازين التي تضبط الحياة وتنظم المجتمع وتهديه للتي هي أقوم ويحتكم الناس إليها إذا اختلفوا فيجدون فيها الحق الذي لا باطل معه، والعدل الذي لا ظلم فيه، والخير الذي يطرد الشر، والفضيلة التي تقاوم الرذيلة والفساد والانحراف، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، فهذا ما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم (الكتاب) وهو نصوص الوحي الإلهي المعصوم، و(الميزان) وهو القيم والمعايير الربانية التي جاء فيها النبوات من المثل العليا والفضائل الإنسانية التي تسير في ضوء الكتاب.

فليس بمجتمع مسلم ذلك الذي ينكمش فيه مفهوم الإيمان بالله والدار الآخرة ليحل محله الإيمان بالعبودية أو القومية أو غير ذلك، وليس بمجتمع مسلم ذلك الذي يتوارى فيه اسم محمد صلى الله عليه وسلم باعتباره الموجه المعصوم والأسوة المطاع، وتبرز أسماء ما انزل الله بها من سلطان من مفكري الشرق والغرب، وليس بمجتمع مسلم الذي يهجر فيه كتاب الله القرآن بوصفه مصدر الهداية والتشريع والحكم لتظهر كتب أخرى تضفى عليها القداسة وتؤخذ منها مناهج الفكر والتشريع والسلوك أو تستمد منها القيم والموازين والمثل، وليس بمجتمع مسلم ذلك الذي يجعل العقيدة على هامش حياته.

فلا غرو أن يكون المجتمع المسلم مرآة تعكس عقيدته وإيمانه، ونظرته إلى الكون والإنسان والحياة، والى رب الكون وبارئ الإنسان، وواهب الحياة(١).

ويعد التمكين في الأرض نتيجة من نتائج انتصار الفئة المؤمنة، فهو مهمة صعبة لمن استخلفه الله عز وجل؛ لأنه يجب عليه أن يقوم به على أكمل وجه، حيث قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥] فهو وعد من الله عز وجل لمن آمن بالله وعمل الأعمال الصالحة بالاستخلاف في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم من الأمم، وهذا وعد يعم جميع الأمة، فوعدهم أن يجعلهم فيها خلفاء يتصرفون الملوك في ممالكهم كما استخلف من قبلهم من الأمم السابقة، وأن يجعل التمكين ثابتاً مقرراً ويوسع لهم في البلاد، ويظهر دينهم على جميع الأديان. ولما ذكر الاستخلاف، وهو جعلهم ملوكاً ثم ذكر التمكين، أفاد أن هذا الملك على وجه الاستقرار والثبات بحيث يكون الملك لهم ولعقبهم من بعدهم(٢).

ويقول سيد قطب: "وتمكين الدين يتم بتمكينه في القلوب كما يتم بتمكينه في تصريف الحياة وتدبيرها"(٣).

ولقد أشارت الآية السابقة إلى شروط التمكين، وهي: الإيمان بكل معانيه وبكافة أركانه، وممارسة العمل الصالح بكل أنواعه والحرص على كل أنواع الخير وصنوف البر وتحقيق العبودية الشاملة ومحاربة الشرك بكل أشكاله وأنواعه وخفاياه، وأما لوازم استمرار التمكين فهي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم(٤). وبيّن في موضع أخر أن الله عز وجل قدر لدينه أن ينتصر وللمسلمين أن يمكنوا وللمشركين أن ينهزموا فكان قدره مكتوباً لعباده المؤمنين بالنصر والتمكين في الأرض.

(١) أنظر: القرضاوي، ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده، من ١١ إلى ٣١.
(٢) أنظر: الشوكاني، فتح القدير ٤/٥٨-٥٩.
(٣) أنظر: سيد قطب، الظلال ٤/٢٥٢٩.
(٤) الصلابي، فقه التمكين في القرآن الكريم، ص١٥٧.

ومن أسباب التمكين إعداد الأفراد الربانيين والقيادة الربانية ومحاربة أسباب الفرقة، وكذلك الاهتمام بالتخطيط والإدارة والقوة الاقتصادية، والإعداد الإعلامي(١).

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج:٤١]، وفي هذه الآية دليل على صحة استخلاف الخلفاء الراشدين؛ لأن الله عز وجل لم يعط التمكين في الأرض، ونفاذ الأمر مع السيرة العادلة، غيرهم من المهاجرين، وكذلك فيها تأكيد لما وعده من إظهار أوليائه وإعلاء كلمتهم(٢).

ويخبرنا الله تعالى لما حدث مع الأنبياء السابقين حيث أورثهم الله عز وجل الأرض من بعد أقوامهم الظلمة، حيث قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣/١٤]، بينت هذه الآيات ما جرى من محاورات ومناورات بين الرسل وأقوامهم، وتوعد الكفار للرسل بطردهم من الديار أو الرجوع لدين الشرك، ولكن انتهت بإهلاك الظالمين ومنح سكنى الأرض بعد هلاكهم للرسل الذين نصرهم الله عليهم(٣).

ولقد أخبر الله عز وجل عن قوم موسى كيف ورثوا الأرض بعد فرعون الطاغية، حيث قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، فوضحت هذه الآية أن الله عز وجل أورّث الأرض لبني إسرائيل الذين كانوا يستضعفهم فرعون وقومه بالقتل والاستخدام، وتلك الأرض هي أرض فلسطين الموعودين بها، وتمت كلمة ربك بإهلاك عدوهم واستخلافهم، وما ذلك إلا لكونهم صبروا واحتسبوا أمرهم لله ففرج عنهم(٤). وقال سبحانه في موضع أخر: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ(٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥-٦] فتفضل الله عليهم بعد أن كانوا مستضعفين وجعلهم قادة الخير ودعاة إليه وولاة على الناس وملوكاً فيهم، وجعلهم وارثين لملك فرعون ومساكن القبط وأملاكهم، فيكون ملك فرعون فيهم ويسكنون في مساكنه ومساكن قومه وينتفعون بأملاكهم فأراد الله أن يجعلهم مقتدرين عليها وعلى أهلها مسلطين على ذلك يتصرفون به كيف شاءوا، عندها رأى فرعون ومن معه ما كان يحذر ويخاف من ذهاب ملكه على يد مولود من بني اسرائيل ألا وهو موسى عليه السلام(٥).

المطلب الثالث: العاقبة نتيجة حتمية للمدافعة في الدنيا ة الآخرة

فمن خلال تتبع الآيات القرآنية وتحليلها من خلال أقوال المفسرين، وكذلك مما هو مشاهد من الواقع والأحداث المختلفة، خرج الباحث بنتيجة نهائية، ويوردها هنا في بداية هذا المطلب لأهميتها، حيث تدور عليها أحداث هذه الدراسة، وهي: موازين القرآن الكريم تقرر نوع نتيجة (العاقبة) المدافعة في الدنيا والآخرة.

والعاقبة من السُّنَن الكونية التي لا تتبدَّل ولا تتحوَّل، والتي تَكَرَّرَ ذكرها في القرآن الكريم، فقال تعالى تعقيبا على قصته فرعون مع موسى عليه السلام: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، وقوله تعالى بعد ذكر قصة نوح عليه السلام مع قومه ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، هذه سُنَّة من سنن الله تعالى: ﴿العاقبة للمتقين﴾ ولكن مَن هُم المتّقون الذين تنطبق عليهم هذه السنة؟ يقول الشيخ رشيد رضا معقّبا على هذه الآية: "أي الذين يتقون أسباب الضعف والخذلان والهلاك، كاليأس من روح الله والتنازع، والفساد في الأرض والظلم، ويتلبسون بضدّها وبسائر ما تقوى به الأمم في الأخلاق والأعمال وأعلاها الاستعانة بالله والصبر على المكاره مهما عظمت"(٦).

---

(١) انظر: المرجع السابق: ٢٠١.
(٢) انظر: الزمخشري، الكشاف، ٣/٧٥٥.
(٣) انظر: الصابوني، صفوة التفاسير، ٢/٨٩-٩٣، الزمخشري، الكشاف، ٢/٥٧٧.
(٤) انظر: سعيد حوى، الأساس في التفسير ٤/١٩٨٣.
(٥) انظر: الشوكاني، فتح القدير ٤/١٩٨.
(٦) أنظر: محمد رشيد رضا، تفسير المنار ٩/٥٧٨، بتصرف وإضافة.

لن يفهمَ حركةَ التاريخ وما يصيب أهل الحق من ابتلاء ثم تكون لهم العاقبة، وما يصيب أهل الشرّ من المحقِ والإذلال ولو بعد حين، لن يفهمها من يجهل هذه السنة، ولا تسقط الأمم ويُمحى اسمها من التاريخ إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سَنَّها الله سبحانه لحكمة بالغة. وقد تكرَّرَ ذكر نصر الله للحق والمحقين والأنبياء والمرسلين، وأن العاقبة لهم، بعد الابتلاء والصبر: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١/١٧٣]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ وجاء في الحديث «وكذلك الأنبياء تبتلى ثم تكون لهم العاقبة». هذه السنَّة يجب أن يتعقَّلَها المسلمون لأن ضعاف العقول يتعلَّقون بالظاهر الحاضر دون وعي لمصير تلك المظاهر، ودون وعي لمآلاتها أخيراً.

وفي واقع الحياة وواقع التاريخ، فإنه ما من عمل أو فكرة مرذولة إلا وتنال عقابها أو زوالها إن آجلا أو عاجلا، ولا توجد هزائم غير مستحقة، لأنها السنن العادلة التي لا تظلم أحداً، وقد يستطيع الخونة الإساءة إلى غيرهم ردحاً من الزمن، غير أن القضاء الحكيم يتربص بهم(١).

وحتى يعتبر الناس بهذه السنة أبقى الله سبحانه وتعالى عقوبات الظالمين المشركين آثارا يراها الناس كلَّمَا مرّوا عليها ولعلها تكون عبرة لهم: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٨]. إنها سنة أيضا أن عاقبة المكذبين المجرمين الهلاك والدمار، قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ [فاطر: ٤٣].

وإذا عدنا إلى الوراء، إلى التاريخ مرة ثانية فإنه كان بإمكان قريش أن ترجع ولا تصل إلى بدر وتصطدم مع المسلمين وتَسلَمَ مما وقع لها من هزيمة في المعركة الفاصلة ولكنه المصير الذي يريده الله سبحانه وتعالى للجاهلية المتكبرة. إنه الإنسان الذي يخفي قصور ذكائه بما يزعمه من إحاطة علمه، ولكنه في الحقيقة جاهل بسنن الله المقروءة والمشهودة في التاريخ.

هي بشارة جميلة ووعدٌ لا يتخلف، وقد عُلِم من قوله {وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} أن من يشاء الله أن يورثهم الأرض هم المتقون إذا كان في الناس متقون وغيرهم، وأن تمليك الأرض لغيرهم إما عارض، وإما لاستواء أهل الأرض في عدم التقوى، قد ينتصر الباطل في جولة، ولكن الجولة الأخيرة يقينا لأهل الحق، والنصر والتمكين لأهل دين الله، والبشارات في ذلك معروفة مأثورة سارت بها الركبان عبر ما بشَّرت به آيات القرآن وأحاديث سيد الأنام. وفي وصف تفصيلي للمتقين حتى لا يختلط علينا الأمر، ولا ننخدع بالاسم عن المسمى(٢).

قال الإمام المراغي: والعاقبة الحسنى لمن يتقون الله ويراعون سننه في أسباب إرث الأرض باتحاد الكلمة والاعتصام بالحق وإقامة العدل والصبر على الشدائد والاستعانة بالله لدى المكاره، ونحو ذلك مما هدت إليه التجارب ودلت عليه الشرائع.

والخلاصة: إن الأمر ليس كما قال فرعون، بل القهر والغلبة لمن صبر واستعان بالله، ولمن وعده الله تعالى توريث الأرض ونحن الموعودون بذلك بإذن الله تعالى، ولكن بشرط أن نقيم شرعه ونسير على سننه في الخلق(٣).

وإذا اعتقد أن صاحب الحق لا ينصره الله تعالى في الدنيا والآخرة، بل قد تكون العاقبة في الدنيا للكفار والمنافقين على المؤمنين، وللفجار الظالمين على الأبرار المتقين، فهذا من جهله بوعد الله تعالى ووعيده. فأما المقام الأول: فإن العبد كثيرا ما يترك واجبات لا يعلم بها، ولا بوجوبها، فيكون مقصّرا في العلم، وكثيرا ما يتركها بعد العلم بها وبوجوبها، إما كسلا وتهاونا، وإما لنوع تأويل باطل، أو تقليد، أو لظنه أنه مشتغل بما هو أوجب منها، أو لغير ذلك، فواجبات القلوب أشد وجوبا من واجبات الأبدان، وآكد منها، وكأنها ليست من واجبات الدين عند كثير من الناس، بل هي من باب الفضائل والمستحبات. قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. فللعبد من العلو بحسب ما معه من الإيمان، وكذلك النصر والتأييد الكامل. إنما هو لأهل الإيمان الكامل، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا

(١) المرجع السابق.

(٢) أنظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير ٦٠/٩ (بتصرف يسير).

(٣) أنظر: المراغي، تفسير المراغي ٣٨/٩.

وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١] وقال ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف:١٤]. فمن نقص إيمانه نقص نصيبه من النصر والتأييد، ولهذا إذا أصيب العبد بمصيبة في نفسه أو ماله، أو بإدالة عدوه عليه، فإنما هي بذنوبه، إما بترك واجب، أو فعل محرم وهو من نقص إيمانه. وبهذا يزول الإشكال الذي يورده كثير من الناس على قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء:١٤١]. ويجيب عنه كثير منهم بأنه لن يجعل لهم عليهم سبيلا في الآخرة، ويجيب آخرون بأنه لن يجعل لهم عليهم سبيلا في الحجة. والتحقيق: أنها مثل هذه الآيات، وأن انتفاء السبيل عن أهل الإيمان الكامل، فإذا ضعف الإيمان صار لعدوهم عليهم من السبيل بحسب ما نقص من إيمانهم، فهم جعلوا لهم عليهم السبيل بما تركوا من طاعة الله تعالى، فالمؤمن عزيز غالب مؤيد منصور مكفي، مدفوع عنه بالذات أينما كان، ولو اجتمع عليه من بأقطارها، إذا قام بحقيقة الإيمان. وأما المقام الثاني، الذي وقع فيه الغلط، فكثير من الناس يظن أن أهل الدين الحق يكونون في الدنيا أذلاء مقهورين مغلوبين دائما، بخلاف من فارقهم إلى سبيل أخرى وطاعة أخرى، فلا يثق بوعد الله بنصر دينه وعباده، بل إما أن يجعل ذلك خاصاً بطائفة دون طائفة، أو بزمان دون زمان أو يجعله معلقا بالمشيئة، وإن لم يصرح بها، وهذا من عدم الوثوق بوعد الله تعالى، ومن سوء الفهم في كتابه، والله سبحانه قد بين في كتابه أنه ناصر المؤمنين في الدنيا والآخرة، وهذا كثير في القرآن(١).

قال القرطبي: قوله تعالى: (والعاقبة للتقوى) أي الجنة لأهل التقوى؛ يعني العاقبة المحمودة، وقد تكون لغير التقوى عاقبة ولكنها مذمومة فهي كالمعدومة ... فالله هو المعطي ولا يسأل عباده عطاءً ولا رزقًا تعالى عن ذلك، والعاقبة الصالحة ستكون في الآخرة لأهل التقوى والخشية من الله، وليس لمن لا يخشى الله ولا يرجو ثوابه فلا يعمل لذلك(٢).

وكنتيجة نهائية للعاقبة الحسنة، والعاقبة المذمومة نختم بحديث من لا ينطق عن الهوى ليعطينا الميزان العام لجميع العواقب في الدنيا والآخرة تأكيداً لما سبق من الميزان القرآني، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «من كانت الدنيا همه، فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كان الآخرة نيته، جمع له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمه(٣).

المطلب الرابع: أهمية معرفة موازين القرآن بين المدافعة والعاقبة

قال أبو لأعلى المودودي: إذا أراد الإنسان أن يتبين وجهة نظر القران في مسألة من مسائل الحياة فيستحسن له أن يطالع ما كتب فيها قديما وحديثاً بكل إمعان، ويحدد بوضوح ما لهذه المسألة من نواح أساسية ونقاط رئيسية، ويتعرف كذلك ما هو مبلغ تفكير الإنسان ومدى ما وصل إليه في هذه المسالة عبر التاريخ، وما هي جوانبها التي تتطلب حلولا، وما هي النقطة التي لم يستطيع التفكير الإنساني تخطيها حتى اليوم. وإذا حقق ذلك، فله أن يدرس القران واضعاً أمام عينية الجوانب التي تتطلب الحلول في هذه المسألة، ومما جربته أن الإنسان إذا درس القران باحثا في مسألة من المسائل على نحو ما ذكرت، فإنه يفاجأ بالردود على أسئلته في آيات قد قرأها عشرات المرات من قبل ولم يخطر بباله أن تلك الآيات تكمن فيها هذه الردود(٤).

ومن هذا المنطلق يرى الباحث أن من أهمية معرفة موازين القرآن بين المدافعة والعاقبة بأنه لا بد للحق من قوة تحميه، وتؤيده، وتسانده، وتكثر سواده، وخاصة في هذه الأزمنة المعاصرة، والتي غلبت فيها المادة، وشاع فيها حب الدنيا والركون إليها، واللهث ورائها وحطامها الزائل، وابتعدوا عن تعاليم الشرع وموازين القرآن التي دلهم عليها.

نعم ...لا بد للحق من قوة تحميه من طغيان الباطل وأهله، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

(١) أنظر: ابن القيم، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ١٧٧/٢-١٨٣ بتصرف.
(٢) أنظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن.
(٣) مسند أحمد، مسند الأنصار، رقم ٢١٥٩٠.
(٤) أنظر: أبو الأعلى المودودي، كيف نفهم القرآن، ص١٢.

وأمر الله سبحانه وتعالى أهل الحق بالجهاد لمحق الباطل وأهله والآيات في ذلك كثيرة منها:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، سنة الله عز وجل في تدافع الحق والباطل والغلبة للحق وأهله: قال تعالى: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤].

قال الزمخشري: "من عادة الله أن يمحو الباطل ويثبت الحق بكلماته أي بوحيه وقضائه[١]، كقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 18].

والنصوص القرآنية في سنة الله عز وجل في نصر المؤمنين كثيرة، منها: قال تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الفتح: 22].

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح: 23]. يعني طريقة الله وعادته السالفة نصر أوليائه على أعدائه[٢].

وقال ابن كثير في تفسيرها: "أي: هذه سنة الله تعالى وعادته في خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل إلى نصر الله الإيمان على الكفر، فرفع الحق ووضع الباطل كما فعل الله تعالى يوم بدر"[٣].

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: 21]. "أي: قد حكم الله وكتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يخالف ولا يُمانع ولا يُبدل بأن النصر له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة"[٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:51]، قال ابن كثير: "وهذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ويقر أعينهم ممن آذاهم. قال السدي: لم يبعث الله رسولا قط إلى قوم فيقتلونه، أو قوما من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله لهم من ينصرهم، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا. قال: فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا، وهم منصورون فيها[٥]، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وجاء في تفسيرها: "فيها مزيد تشريف وتكرمة للمؤمنين حيث جعلوا مستحقين على الله تعالى أن ينصرهم وإشعار بأن الانتقام لأجلهم، والمراد بهم ما يشمل الرسل عليهم الصلاة والسلام، وجوز تخصيص ذلك بالرسل بجعل التعريف عهدياً، وظاهر الآية أن هذا النصر في الدنيا، وفي بعض الآثار ما يشعر بعدم اختصاصه بها وأنه عام لجميع المؤمنين فيشمل من بعد الرسل من الأمة"[٦].

فالمداولة سنة من سنن الله في تدافع أهل الحق مع أهل الباطل:

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [ال عمران: ١٤٠].

المقصود بالأيام في الآية الكريمة: "أوقات الظفر والفوز، ومداولتها بين المؤمنين وأعدائهم أي: تحويل الظفر والغلبة بينهم مرة للمؤمنين ومرة لأعدائهم، فهذه المداولة سنة من سنن الله في تدافع أهل الحق مع أهل الباطل، فلا عجب أن تكون الدولة مرة للمبطل ومرة للمحق، لأن المضمون والمؤكد لصاحب الحق أن تكون العاقبة لهم بالخواتيم.

ولكن يجب أن يُعرف بأن المداولة في الواقع مبنية على أعمال الفريقين فلا تكون الغلبة إلا لمن عرف أسبابها ورعاها حق رعايتها، فإذا كانت المداولة في النصر والغلبة بين الفريقين منوطة بالأعمال التي تفضي إليها كالاجتماع والثبات وصحة النظر وقوة العزيمة وأخذ الأهبة وإعداد ما يستطيع من القوة، فعلى المؤمنين أن يقوموا بهذه الأعمال ونحوها من مستلزمات الغلبة والنصر حتى تكون المداولة لهم لا لعدوهم[٧].

---

(١) أنظر: الزمخشري، الكشاف ٢٢٢/٤.

(٢) أنظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٢٨٠/١٦..

(٣) أنظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٩٢

(٤) المرجع السابق ٢٢٩/٤

(٥) المرجع السابق، ٤/ ٨٣-٨٤.

(٦) انظر: الألوسي، روح المعاني ٥٢/٢١.

(٧) أنظر: محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٤/ ١٤٧-١٤٨.

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:51].

قال الزمخشري: "إن الله تعالى يغلبهم في الدارين جميعاً بالحجة والظفر على مخالفيهم وإن غلبوا في الدنيا في بعض الأحايين امتحاناً من الله فالعاقبة لهم[1]، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤].

والله – سبحانه –: "شاء أن يجعل الهدى ثمرة للجهد والتلقي والاستجابة، وشاء أن يتم تحقيق منهجه – سبحانه – للحياة في حياة البشر عن طريق الجهد البشري، وفي حدود الطاقة البشرية، وشاء أن يبلغ من هذا كله بقدر ما يبذل من الجهد في حدود ملابسات حياته الواقعية[2].

والمنهج الإلهي لا يتحقق إلا بأن: "تحمله مجموعة من البشر، وتؤمن به إيماناً كاملاً، وتستقيم عليه بقدر طاقتها – وتجعله وظيفة حياتها وغاية آمالها وتجتهد لتحقيقه في قلوب الآخرين، وفي حياتهم العملية كذلك، وتجاهد لهذه الغاية بحيث. لا تستبقي جهداً ولا طاقة.

ثم تنتصر هذه المجموعة على نفسها وعلى نفوس الناس معها تارة وتنهزم تارة أخرى ... وذلك بقدر ما تبذل من الجهد، وبقدر ما تتخذ من الأساليب العملية، وبقدر ما توفق في اختيار الأساليب وقبل كل شيء، وقبل كل جهد، وقبل كل وسيلة هناك عنصر آخر: هو مدى تجرد هذه المجموعة لهذا الغرض، ومدى تمثيلها لحقيقة هذا المنهج في ذات نفسها، ومدى ارتباطها بالله تعالى صاحب هذا المنهج، وثقتها به وتوكلها عليه[3].

فقانون السببية أي ربط المسببات بأسبابها والنتائج بمقدماتها، هذا القانون عام شامل لكل ما في العالم ولكل ما يحصل للإنسان في الدنيا والآخرة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب، والله خالق الأسباب والمسببات[4].

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: "والقرآن الكريم مملوء من ترتيب الأحكام الكونية والشرعية والثواب العقاب على الأسباب لطرق متنوعة:

– فيأتي بباء السببية تارة، كقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]

– ويأتي باللام تارة، كقولة تعالى: ﴿الر ۚ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [ابراهيم: ١].

– ويأتي بذكر الوصف المقتضى للحكم تارة، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق:٢].

"فالله تعالى اقتضت حكمته ربط المسببات بأسبابها"[5].

وقال ابن تيمية: "وليكن معلوماً أن كون الشيء سبباً لغيره أو كونه مسبباً عن غيره، هو من فعل الله تعالى وحكمه، فهو تعالى خالق الأسباب والمسببات[6].

إن الذي ينشئ النتائج – كما ينشي الأسباب – هو قدر الله ولا علاقة بين السبب والنتيجة في شعور المؤمن .. اتخاذ السبب عبادة بالطاعة وتحقق النتيجة قدر من الله مستقلٌ عن السَّبب، لا يقدر عليه إلا الله، وبذلك يتحرَّر شعور المؤمن من التعبُّد للأسباب والتَّعلُّق بها، وفي الوقت ذاته هو يستوفيها بقدر طاعته؛ لينال ثواب طاعة الله في استيفائها[7].

فإذا أردنا أن يمن الله علينا بالتمكين فعلينا بإتباع سنة الله في الأخذ بالأسباب تعبداً وطاعة لله سبحانه وتعالى لأنه يرضى منا ذلك، ولا يرضى منا الأحلام والأمنيات التي هي بضاعة الكسالى والخاملين.

---

(١) أنظر: الزمخشري، الكشاف ١٧٢/٤.
(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن ٥٢٦/١.
(٣) المرجع السابق ٥٢٨/١.
(٤) أنظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ص٧٠.
(٥) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين ٣٩٨/٣، ٤٩٩.
(٦) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (٧٠/٨).
(٧) سيد قطب، في ظلال القرآن ١٤٧٦/٣.

وعوداً إلى سنة التدافع وأهميتها:

فقال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقال أيضاً: ﴿فَالَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(٤٠)﴾ [الحج: ٤٠].

هاتان الآيتان دستور التدافع[١] بين الحق والباطل، وهما يكشفان عن حكمة الله عز وجل العليا في الأرض من تدافع القوى وتنافس الطاقات، وانطلاق السعي في تيار الحياة المتدفق الصاخب ساحة الحياة المترامية الأطراف تموج بالناس، في تدافع وتسابق وزحام إلى الغايات، ومن ورائها تلك اليد الحكيمة المدبرة تمسك بالخيوط جميعًا، وتقود الركب المتزاحم المتصارع المتسابق، إلى الخير والصلاح والنماء.

قال الطبري: «ولولا أن الله يدفع ببعض الناس وهم أهل الطاعة له والإيمان به، بعضًا وهم أهل المعصية له، والشرك به لفسدت الأرض، بمعنى: لهلك أهلها بعقوبة الله إياهم، ففسدت بذلك الأرض، ولكن الله تعالى ذو منٍّ على خلقه، وطولٍ عليهم بدفعه بالبر من خلقه عن الفاجر، وبالمطيع عن العاصي منهم»[٢].

ذكر الطبري في تفسيره عن ابن عباس: "لولا دفع الله العدو بجنود المسلمين لغلب المشركون فقتلوا المؤمنين وخربوا البلاد والمساجد"[٣].

ولولا أن طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها تعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة؛ لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب، وتتدافع، تنفض عنها الكسل والخمول، وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة، وتظل أبدًا يقظة عاملة، مستنبطة لذخائر الأرض مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة.

وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنماء، يكون بقيام الجماعة الخيرة المهتدية المتجردة، تعرف الحق الذي بينه الله لها، وتعرف طريقها إليه واضحًا، وتعرف أنها مكلفة بدفع الباطل وإقرار الحق في الأرض، وتعرف أن لا نجاة لها من عذاب الله إلا أن تنهض بهذا الدور النبيل، ويجعل الله حصيلة الصراع والتنافس والتدافع في يد القوة الخيرة البانية، التي استجاش الصراع أنبل ما فيها وأكرمه، وأبلغها أقصى درجات الكمال المقدر لها في الحياة.

ومن هنا كانت الفئة القليلة الواثقة بالله تغلب في النهاية، وتنتصر؛ ذلك بأنها تمثل إرادة الله العليا في دفع الفساد عن الأرض، وتمكين الصلاح في الحياة، إنها تنتصر؛ لأنها تمثل غاية عليا تستحق الانتصار[٤].

إن قوى الشر والضلال تعمل في هذه الأرض، والمعركة مستمرة بين الخير والشر والهدى والضلال والصراع قائم بين قوى الإيمان وقوى الطغيان منذ أن خلق الله الإنسان والشر جامح والباطل مسلح، وهو يبطش غير متحرج، ويضرب غير متورع، أماكن العبادة كلها معرضة للهدم سواء كانت للنصارى أو اليهود أو المسلمين على قداستها وتخصيصها لعبادة الله لا يشفع لها في نظر الباطل أن اسم الله يذكر فيها، وقد شاهدنا ما حدث في معظم بلاد الإسلام، من هدم للمساجد على يد اليهود والصليبيين — ولا يحميها إلا بدفع الله الناس بعضهم ببعض. أي دفع حماة العقيدة لأعدائها الذين ينتهكون حرمتها، ويعتدون على أهلها.

فالباطل متبجح لا يكف ولا يقف عن العدوان إلا أن يدفع بمثل القوة التي يصول بها ويجول، ولا يكفي الحق أنه الحق ليقف عدوان الباطل عليه، بل لا بد من قوة تحميه وتدفع عنه. وهي قاعدة كلية لا تتبدل ما دام الإنسان هو الإنسان!"[٥].

---

(١) الدفع: الإزالة بقوة. يقال دفعة يدفعه دفعاً أو دفاعاً، ودافع عنه بمعنى دفع. والمدافعة: المزاحمة. والاندفاع: المضي في الأمر، والدفع: إذا عُدي بعن اقتضى معنى: الحماية

(٢) أنظر: الطبري، جامع البيان ٤٠٣/٢.

(٣) المرجع السابق ١١٧/١.

(٤) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٢٦٤/١-٢٦٥.

(٥) المرجع السابق ٤-٢٤٢٥.

ارتباط الإيمان والابتلاء بالتمكين:

جاء على لسان الإمام الشافعي رحمه الله تعالى حين سأله رجل: أيهما أفضل للمرء، أن يمكن أو أن يبتلى؟ فقال الشافعي: لا يمكّن حتى يبتلى، فإن الله تعالى ابتلى نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فلما صبروا مكّنهم فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة[١].

وحقيقة الإيمان لا يتم تمامها في جماعة، حتى تتعرض للتجربة والامتحان والابتلاء، وحتى يتعرف كل فرد فيها على حقيقة طاقته، وعلى حقيقة غايته ثم تتعرف الجماعة على حقيقة اللبنات التي تتألف منها، ومدى تماسك هذه اللبنات في ساعة الشدة[٢].

﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وهذا هو طريق الفئة المؤمنة: إيمان وجهاد ومحنة ابتلاء وصبر وثبات وتوجه إلى الله وحده، ثم يجيء النصر والتمكين في الدنيا، ثم النعيم في جنات الله في الآخرة[٣].

إن ذهاب الباطل ناجيا في معركة من المعارك وبقاءه منتفشا فترة من الزمان، ليس معناه أن الله تاركه، أو أنه من القوة بحيث لا يغلب، أو بحيث يضر الحق ضرراً باقياً قاضياً ... وإن ذهاب الحق مبتلى في معركة من المعارك، وبقاءه ضعيف الحول فترة من الزمان، ليس معناه إن الله مجافيه أو ناسيه! أو أنه متروك للباطل يقتله ويرديه ... كلا، إنما هي حكمة وتدبير ... هنا وهناك ... يملي للباطل ليمضي إلى نهاية الطريق؛ وليرتكب أبشع الآثام، وليحمل أثقل الأوزار، ولينال أشد العذاب باستحقاق ... ويبتلى الحق، ليميز الخبيث من الطيب، ويعظم الأجر لمن يمضي مع الابتلاء ويثبت ... فهو الكسب للحق والخسارة للباطل، مضاعفاً هذا وذاك! هنا وهناك"[٤].

فهذا وعد من الله للذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات والإيمان بشروطه وفروعه والعمل الصالح نتيجة للإيمان الصحيح، وعد الله هؤلاء وعداً أكيداً بثلاثة أمور:

أ- الاستخلاف في الأرض، وأن يجعل لهم ولاية عليها، وقدرة على الاستفادة منها لمعاشهم ومعادهم.

ب- التمكين لهم في الأرض بإسلامهم ومنهجهم، فتكون لهم المهابة والسلطان، وأن يكون لدينهم الهيمنة والظهور على الدين كله.

ج- وأن يبدل حالهم من خوف إلى أمن.

ومعنى ذلك أن المؤمنين الذين يعملون الصالحات، هم أهل السيادة على الأرض، ودينهم هو دين الظهور والهيمنة، ولابد من الوصول إلى هذا في ظل التربية الإسلامية للناس.

وطالما بقي المسلمون بعيدين من التمكن في الأرض فهم بعيدون عن حقيقة الإيمان وعن العمل الصالح، وبالتالي فهم في حرج من أمر دينهم وعلى إثم معصية، والتربية الإسلامية تحاول بكل ما وسعت أن تخرج الناس من الحرج والإثم والمعصية[٥].

قال السعدي: ... قام صدر هذه الأمة، من الإيمان والعمل الصالح بما يفوق على غيرهم. فمكنهم من البلاد والعباد، وفتحت مشارق الأرض ومغاربها، وحصل الآمن التام، فهذه من آيات الله العجيبة الباهرة[٦].

فهو الإيمان الذي يستغرق الإنسان كله بخواطر نفسه، وخلجات قلبه، وأشواق روحه، وميول فطرته، وحركات جسمه، ولفتات جوارحه، وسلوكه مع ربه في أهله ومع الناس جميعا، يتمثل هذا في قول الله سبحانه في الآية نفسها تعليلاً للاستخلاف والتمكين والآمن[٧].

إن الإيمان المطلوب هو الذي يبعثنا على الحركة والهمة، والنشاط والسعي، والجهد والمجاهدة، والجهاد والتربية، والاستعلاء والعزة، والثبات واليقين[٨].

---

(١) ابن قيم الجوزية، الفوائد، ص٢٨٣

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن ٥٢٩/١.

(٣) المرجع السابق ٢١٩/١.

(٤) المرجع السابق ٥١٦/١-٥١٧.

(٥) أنظر: علي عبدالحليم محمود، وسائل التربية، ص١٨-١٩.

(٦) أنظر: تفسير السعدي ٦٧٨.

(٧) سيد قطب، في ظلال القرآن ٢٥٢٨/٤.

(٨) أنظر: الخالدي، في ظلال الإيمان، ص٦٣.

المبحث الثاني: موازين القرآن بين المدافعة والعاقبة

في الوقت الذي تخاطب بعض الفلسفات في الإنسان عقله، وأخرى تخاطب قلبه، فإن القرآن الكريم في خطابه يحقق التوازن في مخاطبة العقل والقلب معاً؛ فيجمع بذلك الحق والجمال معاً، فلا يبغي بعضهما على الآخر.

وسنة (المدافعة) هذه السنة التي لا تجعل الخير خامداً ساكناً في حيز أو جهة كما لا تسمح للشر أن يكون كذلك فبينهما من التزاحم والتدافع ما ينشط الحياة ويطلق الطاقات المذكورة في عقول البشر ودمائهم حتى تحقق نتائج وعواقب بموجب موازين قرآنية بين المدافعة والعاقبة، تتناولها هذه الدارسة خلال هذا المبحث.

المطلب الأول: ميزان الإيمان والعمل الصالح

هذا هو الميزان القرآني الأول والأهم، ونستشفه من كثير من الآيات، ومنها: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٥].

وسبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

وقوله جل شأنه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ [الأنبياء:٩٤].

وغيرها كثير، ويكفي أن الله تعالى دائما يقرن بينهما ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ و﴿عملوا الصالحات﴾.

وعندما فهم الخلق بأن الأموال والأولاد والكثرة والعطاء، هي من تقرب إلى الله زلفى وتدني إليه، بيّن لهم الميزان الحقيقي في ذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٦/٣٧].

وليست أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا قربى، وترفع درجاتكم، لكن مَن آمن بالله وعمل صالحًا، فهؤلاء لهم ثواب الضعف من الحسنات، فالحسنة بعشر أمثالها إلى ما يشاء الله من الزيادة، وهم في أعالي الجنة آمنون من العذاب والموت والأحزان(١).

قال السعدي: وليست الأموال والأولاد بالتي تقرب إلى الله زلفى وتدني إليه، وإنما الذي يقرب منه زلفى، الإيمان بما جاء به المرسلون، والعمل الصالح الذي هو من لوازم الإيمان، فأولئك لهم الجزاء عند الله تعالى مضاعفاً الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، لا يعلمها إلا الله، وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ أي: في المنازل العاليات المرتفعات جدا، ساكنين فيها مطمئنين، آمنون من المكدرات والمنغصات، لما هم فيه من اللذات، وأنواع المشتهيات، وآمنون من الخروج منها والحزن فيها(٢).

فالإيمان والعمل الصالح متلازمان، وإن الفئة المؤمنة لا يمكن لها أن تنتصر على عدوها إلا إذا استحكم الإيمان قلبها، ولا ينفعها إيمان بلا عمل، ولعل ما يستوجب النصر لها هو أن يصبح الإيمان عندها سلوكاً ظاهراً في أقوالها وأفعلها، ولا سيما في هذا المقام صفة الصبر التي تتحلى به الفئة المؤمنة وان كانت قليلة وكل ذلك نتيجة الإيمان والعمل الصال، الذي حقق لها النصر على الأعداء.

والكمال الحقيقي يتحقق بكمال طاعة الله ورسوله وهذا ما قاله ابن تيمية: "وعبادته (أي الله عز وجل) طاعة أمره، وأمره لنا ما بلغه الرسول عنه، فالكمال في كمال طاعة الله ورسوله باطناً وظاهراً"(٣).

والعمل الصالح هو الثمرة الطبيعية للإيمان، والحركة الذاتية التي تبدأ في ذات اللحظة التي تستقر فيها حقيقة الإيمان في القلب. فالإيمان حقيقة إيجابية متحركة، ما إن تستقر في الضمير حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها في الخارج في صورة عمل صالح .. هذا هو الإيمان الإسلامي .. لا يمكن أن يظل جامداً لا يتحرك، كامناً لا يتبدى في صورة حية خارج ذات المؤمن .. فإن لم يتحرك هذه الحركة الطبيعية فهو مزيف أو ميت، شأنه شأن الزهرة لا تمسك أريجها، فهو ينبعث منها انبعاثا طبيعياً، وإلا فهو غير موجود.

---

(١) التفسير الميسر، ص٤٣٢.

(٢) تفسير السعدي، ص ٨٠١.

(٣) ابن تيمية، مكارم الأخلاق، ص٢٦٩

ومن هنا قيمة الإيمان .. إنه حركة وعمل وبناء وتعمير .. يتجه إلى الله، إنه ليس انكماشاً وسلبية وانزواء في مكنونات الضمير، وليس مجرد النوايا الطيبة التي لا تتمثل في حركة، وهذه طبيعة الإسلام البارزة التي تجعل منه قوة بناء كبرى في صميم الحياة(١).

والعمل الصالح واسع الدائرة إلى حد يشمل كل شيء في الحياة تباشره باسم الله.

إن الله تعالى إذا نبه عباده إلى أن الأرض يرثها عباده الصالحون، فإن معنى ذلك الصلاح أوسع من ركعات تؤدى أو أيام صيام.

إنه علم رحب الآفاق بكل شيء في مقدور البشر، وعدل ممدود الرواق لا يشقى معه ضعيف. ولا يزيد فيه نصيب مؤيد على نصيب معارض! وتنظيم نظافة الوجوه والثياب والبيوت والشوارع والقرى والمدن، وأمان ضد الجوع والقلق وطوارق اليوم والغد، وكفالة لحرية العقل والضمير تنمو فيها المواهب وتنضج الملكات وتكتمل الشخصية وتصان المرافق العامة والخاصة(٢).

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

قال سيد قطب: ... وحيثما اجتمع إيمان القلب ونشاط العمل في أمة فهي الوارثة للأرض في أية فترة من فترات التاريخ، ولكن حين يفترق هذان العنصران فالميزان يتأرجح، وقد تقع الغلبة للآخذين بالوسائل المادية حين يهمل الأخذ بها من يتظاهرون بالإيمان، وحين تفرغ قلوب المؤمنين من الإيمان الصحيح الدافع إلى العمل الصالح، وإلى عمارة الأرض، والقيام بتكاليف الخلافة التي وكلها الله إلى هذا الإنسان.

وما على أصحاب الإيمان إلا أن يحققوا مدلول إيمانهم، وهو العمل الصالح، والنهوض بتبعات الخلافة ليتحقق وعد الله، وتجري سنته ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

على المسلم أن يعمل للطاعات والأعمال الصالحة التي أمره الله بها ويجتهد في القيام بالأعمال المندوبة والتي تسمى فضائل الأعمال قدر المستطاع؛ فلكي يرسخ الإيمان بالقلب لا بد من إتباعه بالعمل الصالح قال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٥]

فعلى المسلم أن تكون دائرة بذل جهده الأولى هي نفسه فيرسخ الإيمان فيها، وأن يجتهد كذلك بالعمل بكل ما يبلغه من أعمال صالحة موافقة للسنة حتى يكتب من أهلها.

المطلب الثاني: ميزان الصبر والابتلاء

هذا الميزان القرآني لا يقل أهمية عن السابق، ونستشفه من كثير من الآيات وبالخصوص، من قوله تعالى: ﴿فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم﴾ [البقرة: ٢٤٩].

قال السعدي: أي: لما تملَّك طالوت ببني إسرائيل واستقر له الملك تجهزوا لقتال عدوهم، فلما فصل طالوت بجنود بني إسرائيل وكانوا عددا كثيراً وجماً غفيراً، امتحنهم بأمر الله ليتبيّن الثابت المطمئن ممن ليس كذلك فقال: إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني فهو عاص ولا يتبعنا لعدم صبره وثباته ولمعصيته، ومن لم يطعمه أي: لم يشرب منه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فلا جناح عليه في ذلك، ولعل الله أن يجعل فيها بركة فتكفيه، وفي هذا الابتلاء ما يدل على أن الماء قد قلّ عليهم ليتحقق الامتحان، فعصى أكثرهم وشربوا من النهر الشرب المنهي عنه، ورجعوا على أعقابهم ونكصوا عن قتال عدوهم وكان في عدم صبرهم عن الماء ساعة واحدة أكبر دليل على عدم صبرهم على القتال الذي سيتطاول وتحصل فيه المشقة الكبيرة، وكان في رجوعهم عن باقي العسكر ما يزداد به الثابتون توكلاً على الله، وتضرعاً واستكانة وتبرؤا من حولهم وقوتهم، وزيادة صبر لقلتهم وكثرة عدوهم، فلهذا قال تعالى: فلما جاوزه أي: النهر هو أي: طالوت والذين آمنوا معه وهم الذين أطاعوا أمر الله ولم يشربوا من النهر الشرب المنهي عنه فرأوا قلتهم وكثرة أعدائهم، قالوا أي: قال كثير منهم لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده لكثرتهم وعَددهم وعُددهم، قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله أي: يستيقنون ذلك، وهم أهل الإيمان الثابت واليقين الراسخ، مثبتين لباقيهم ومطمئنين لخواطرهم، وآمرين لهم بالصبر

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن ٦/٣٩٦٦-٣٩٦٧.

(٢) محمد الغزالي، سر تأخر العرب والمسلمين، ص١٢٣، بتصرف يسير.

كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله أي: بإرادته ومشيئته فالأمر لله تعالى، والعزيز من أعزه الله، والذليل من أذله الله، فلا تغني الكثرة مع خذلانه، ولا تضر القلة مع نصره، والله مع الصابرين بالنصر والمعونة والتوفيق، فأعظم جالب لمعونة الله صبر العبد لله، فوقعت موعظته في قلوبهم وأثرت معهم(١).

وفي هذا الابتلاء اختبار لعزيمتهم، وامتحان لصبرهم على المتاعب حتى يتميز من يصبر على الحرب ممن لا يصبر، ومن شأن القواد الأقوياء العقلاء أنهم يختبرون جنودهم قبل اقتحام المعارك حتى يكونوا على بينة من أمرهم.

ثم بين لهم موضع الاختبار فقال: ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ [سورة البقرة:٢٤٩].

ثم ختم- سبحانه- ما كان من بني إسرائيل نتيجة لهذا الامتحان فقال: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ أي: فشربوا من النهر حتى امتلأت بطونهم مخالفين بذلك أمر قائدهم في وقت تعظم فيه المخالفة لأنه وقت إقدام على الحرب، إلا عددا قليلا منهم فإنهم لم يشربوا إلا كما رخص لهم قائدهم(٢).

فالصبر لغة: الإمساك في ضيق يقال صيرت الدابة حبستها بلا علف وصبرت فلاناً خلفته خلفه لا خروج منه له منها(٣).

ونظراً لأهمية الصبر جمع الله عز وجل بينه وبين التقوى في آية واحدة؛ قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [ال عمران: ١٢٠] ويرشدهم الله تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار باستعمال الصبر والتقوى والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم(٤)، وكذلك الصبر والتقوى شرط لنفي الضر عن المسلمين وفيه تسلية وتقوية لهم(٥).

قلت: وبناء على ذلك فإن النصر يتحقق بالصبر؛ حيث قال تعالى: ﴿فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤]، قال ابن كثير: إن هذه الآية جاءت تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتعزية له فيمن كذبه من قومه، وأمرًا له بالصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل، ووعداً له بالنصر كما نصروا وبالظفر حتى كانت العاقبة بعدما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ، ثم جاءهم النصر في الدنيا كما لهم النصر في الآخرة(٦).

إن النصر في هذا المقام ما كان حليفاً لهم إلا بصبرهم، ألا ترى أنه قال في سياق الآية ﴿فَصَبَرُوا﴾ وبعد الصبر جاءهم النصر؟ وذلك في قوله:﴿حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ فكان النصر سببه الصبر ومعه الفرج، وهذا معنى قولهم "الصبر مفتاح الفرج" فكان الفرج عندهم بالنصر على من كذبهم في الدنيا والآخرة، وبعد الصبر سبباً لتحقيق الإمامة في الأرض حيث قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]

يقول صاحب الضلال: إن هذه الآية للإيحاء للقلة المسلمة يومذاك في مكة أن تصبر كما صبر المختارون من بني إسرائيل، وتوقن كما أيقنوا ليكون منهم أئمة للمسلمين، كما كان أولئك أئمة لبني إسرائيل ولتقرير طريق الإمامة والقيادة، وهو الصبر واليقين(٧).

معنى الابتلاء:

بلوت الرجل بلوًا وبلاءً، وابتليته: اختبرته، وابتلاه الله: امتحنه، والاسم: البلوى والبلاء. والبلاء: الاختبار يكون بالخير والشر، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

فاختبار الله تعالى لعباده تارة بالمسارة ليشكروا، وتارة بالمضار ليصبروا، فالمحنة والمحنة جميعاً بلاء، فالمحنة مقتضية للصبر، والمحنة مقتضية للشكر، والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر، فالمحنة أعظم البلاءين. وبهذا النظر قال عمر بن الخطاب ﷺ بُلينا بالضراء فصبرنا وبلينا بالسراء فلم نصبر(٨).

---

(١) تفسير السعدي، ص١١٠.
(٢) التفسير الميسر، ص٤١
(٣) أنظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص٢٧٣.
(٤) أنظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٥٧٩/١.
(٥) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١١٨/٤.
(٦) أنظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ١٦٦/١.
(٧) سيد قطب، في ظلال القرآن ٢٨١٤/٥.
(٨) أنظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص٦١.

والتخلق بالصبر ملاك فضائل الأخلاق كلها، فإن الارتياض بالأخلاق الحميدة لا يخلو من حمل المرء نفسه على مخالفة شهوات كثيرة، ففي مخالفتها تعب يقتضي بالصبر عليها حتى تصير مكارم الأخلاق ملكة لمن راض نفسه عليها(١).

ويعد الصبر ضرورة للإنسان؛ حيث أن الصبر ضرورة للإنسان، لما فيه من قيمة كبيرة دينية وخلقية، فهو ضرورة لازمة له ليرقى مادياً ومعنوياً ويسعد فردياً واجتماعياً، فلا ينتصر دين الله ولا تنهض أمة إلا بالصبر، فالصبر ضرورة دنيوية كما هو ضرورية دينية، فلا نجاح في الدنيا ولا فلاح في الآخرة إلا بالصبر ... وكذلك الصبر ضرورة لازمة لأهل الإيمان لأنهم أشد تعرضاً للأذى والمحن والإبتلاء في أموالهم وأنفسهم وفي كل عزيز لديهم(٢).

والصبر سبب في تحقيق السعادة حيث يقول الماوردي: اعلم أن من حسن التوفيق وأمارات السعادة الصبر على الملمات والرفق عند النوازل(٣).

وقد بين ابن القيم: "أن الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه ولا معه"(٤).

وبالصبر يتحقق النصر والفرج، ويظفر المسلم بعدوه ويمكّن له في الأرض، كيف لا! وهو صاحب الخلق الحسن لا سيما خلق الصبر الذي تبنى عليه أموره كلها حيث قال صلى الله عليه وسلم: (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له)(٥).

وما يزيد الأمر وضوحاً في أن النصر يتحقق بخلق الصبر هو قوله تعالى: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:٦٦] حيث بينت الآية أن الله مع الصابرين والمقصود أن العشرين لو صبروا ووقفوا فإن نصرتي معهم وتوفيقي مقارن لهم(٦).

وليس أدل على ذلك من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

فالصبر يثبّت المقاتل في ساحة المعركة وبه يلقى الوهن من قبله، ليقذف به في صدور الأعداء، لا يرهب الموت، بل يستقبله بصدر رحب دون خوف من المجهول؛ لأن الرؤية قد اتضحت بصيرته ولو انكشف الحجاب عن عينيه، وما زاد في إيمانه شيئاً؛ ولأنه يدرك أن الحياة الحقيقية هناك بعد الموت، وأن الحياة الدنيا ليست إلا جسراً يعبر عليه المقاتل المسلم إلى الآخرة(٧).

ولقد حدّث النبي صلى الله عليه وسلم على الصبر في مواطن الحرب فعندما قال رجل من الأنصار للنبي صلى الله عليه وسلم يا رسول الله: ألا تستعملني كما استعملت فلاناً؟ فقال: (ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض)(٨).

ويحفز النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة الكرام على الصبر بذكر جزاء الصابرين، حيث إن الرسول في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموه فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف) ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: (اللهم منزل الكتاب ومجري السّحاب وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم)(٩).

وكذلك، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥]، حيث يحث الله عباده المؤمنين على الصبر في مرحلة القتال حتى تكون لهم الغلبة، فالله تعالى لم يوجب هذا الحكم إلا بشرط كونه صابراً قاهراً على ذلك ويحصل الشرط عندما يكون شديد الأعضاء قوياً جلداً وقوي القلب شجاعاً غير جبان، وأن يكون غير متحرّف إلا لقتال، أو متحيّزاً إلى فئة فعندما تحصل هذه الشرائط كان يجب على الواحد أن يثبت أمام العشرة(١٠).

---

(١) أنظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: ٥٣٣/٣٠.

(٢) انظر: أحمد أبو الشباب، مقومات النصر ٢٨/١.

(٣) أنظر: الماوردي، أدب الدنيا والدين، ٢٩٤.

(٤) أنظر: ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ١٦١/٢.

(٥) صحيح مسلم: كتاب: الزهد والرقائق، باب: المؤمن أمره كله خير، رقم٢٩٩٩.

(٦) أنظر: الرازي، التفسير الكبير ١٩٦/١٥.

(٧) انظر: أحمد أبو الشباب، مقومات النصر ١٣٠/١.

(٨) صحيح البخاري، كتاب: مناقب الأنصار، باب قول النبي للأنصار "أصبروا حتى تلقوني على الحوض"، رقم٣٧٩٢.

(٩) صحيح مسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب، كراهة تمنى لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء، رقم١٧٤٢.

(١٠) انظر: الرازي، التفسير الكبير ١٩٢/١٥، القاسمي، مدارك التنزيل ٣٠٣٢/٨.

المطلب الثالث: ميزان الجهاد ونصرة الدين

فجوهر الجهاد هو البذل والوسع والطاقة في سبيل الله وإقامة دينه وتبليغ دعوة الإسلام دون إكراه فيكون وسيلة لإنقاذ البشرية وإسعادها بالإسلام، قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

إن الجهاد هو الوسيلة العظيمة لتبليغ الدعوة وتوصيلها إلى الناس جميعاً، ومن خلال قيام المسلمين بها يتم إنقاذ الكثيرين من الضلالة والنار، قال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

وعندما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يعدل الجهاد في سبيل الله قال: لا تستطيعونه، فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً كل ذلك يقول: لا تستطيعونه، ثم قال: مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد(١).

وغني عن البيان أن للجهاد صوراً كثيرة يجمعها مع بذل الجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧].

فلقد جمع الله في هذه الآية بين من يقتل في سبيل الله، وبين من لا يموت وهو في سبيل الله وجعلهما مشتركين في الأجر.

إن توصيل رسالة الله عز وجل يحتاج إلى بذل حقيقي للجهد، وتضحية عظيمة بالغالي والنفيس، وصبر وثبات على المحن والعقبات التي تعترض على طريق توصيل الرسالة، فلا راحة للمسلمين حتى يكون الدين كله لله.

وهذا الميزان كان من مهمات النبي صلى الله عليه وسلم، ولازال من مهمة ورثة الأنبياء من العلماء والدعاة المخلصين والمحتسبين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الانفال:٦٥/٦٦].

يا أيها النبي حُثَّ المؤمنين بك على القتال، إن يكن منكم عشرون صابرون عند لقاء العدو يغلبوا مائتين منهم، فإن يكن منكم مائة مجاهدة صابرة يغلبوا ألفًا من الكفار؛ لأنهم قوم لا عِلْم ولا فهم عندهم لما أعدَّ الله للمجاهدين في سبيله، فهم يقاتلون من أجل العلو في الأرض والفساد فيها(٢).

قال السعدي: يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ أي: حثهم وأنهضهم إليه بكل ما يقوّي عزائمهم وينشط هممهم، من الترغيب في الجهاد ومقارعة الأعداء، والترهيب من ضد ذلك، وذكر فضائل الشجاعة والصبر، وما يترتب على ذلك من خير في الدنيا والآخرة، وذكر مضار الجبن، وأنه من الأخلاق الرذيلة المنقصة للدين والمروءة، وأن الشجاعة بالمؤمنين أولى من غيرهم ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أيها المؤمنون عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، يكون الواحد بنسبة عشرة من الكفار، وذلك بأن الكفار قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ أي: لا علم عندهم بما أعد الله للمجاهدين في سبيله، فهم يقاتلون لأجل العلو في الأرض والفساد فيها، وأنتم تفقهون المقصود من القتال، أنه لإعلاء كلمة الله وإظهار دينه، والذبّ عن كتاب الله، وحصول الفوز الأكبر عند الله، وهذه كلها دواع للشجاعة والصبر والإقدام على القتال(٣).

وهكذا أمر الله – تعالى– نبيه صلى الله عليه وسلم بتحريض المؤمنين على القتال من أجل إعلاء كلمة الحق، فقال– تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ﴾.

وقوله: حَرِّضِ من التحريض بمعنى الحث على الشيء بكثرة التزيين له، وتسهيل الأمر فيه حتى تقدم عليه النفس برغبة وحماس.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب: الإمارة، باب: فضل الشهادة في سبيل الله، رقم١٨٧٨.

(٢) أنظر: التفسير الميسر، ص١٨٥

(٣) تفسير السعدي، ص٣٦٠

والمعنى: يا أيها النبي بالغ في حث المؤمنين وإحمائهم على القتال بصبر وجلد، من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل.
ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرض أصحابه على القتال عند صفهم ومواجهة الأعداء كما قال لأصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون في عددهم وعددهم: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض».
وقوله: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ بشارة من الله – تعالى– للمؤمنين ووعد لهم بالظفر على أعدائهم. أي: قابلوا – أيها المؤمنون أعداءكم بقوة وإقدام، فإنكم إن يوجد منكم عشرون رجلاً صابرون يغلبوا – بسبب إيمانهم وصبرهم – مائتين من الكافرين، وإن يوجد منكم مائة يغلبوا ألفا منهم، وذلك بسبب أن هؤلاء الكافرين قوم جهلة بحقوق الله – تعالى– وبما يجب عليهم نحوه. فهم –كما يقول صاحب الكشاف: «يقاتلون على غير احتساب وطلب ثواب كالبهائم» فيقل ثباتهم. ويعدمون لجهلهم بالله نصرته، ويستحقون الخذلان، بخلاف من يقاتل على بصيرة ومعه ما يستوجب به النصر والإظهار من الله– تعالى».
أما الآن فقد أصبح المسلمون غافلين عن هذه المعاني الجليلة، فزال مجدهم.
و نصرة الله: عرفها الرازي في تفسيره بقوله: والنصرة تحقيق مطلوب أحد المتعادين عند الاجتهاد والأخذ في تحقيق علامته، فالشيطان عدو الله يجتهد في تحقيق الكفر وغلبة أهل الإيمان والله يطلب قمع الكفر وإهلاك أهله وإفناء من اختار الإشراك بجهله(١).
قلت: فإذا تحقق مطلوب أي من الطرفين يكون نصرة له على الآخر.
إن نصرة الدين ركن أساسي من أركان الدين فيجب على المسلم التمسك بهذا الركن فهو مستمر إلى قيام الساعة، وعلى الداعي ألا ييأس، بل يستمر في دعوته، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [ال عمران: ١٠٤]، وان لم يجد الداعية استجابة من المدعوين يغير المنكر بالقلب (فليغيره بقبله وذلك أضعف الإيمان)(٢)، ولقد ذم الله تاركي هذه الفريضة حيث ما أفلحت أمة تركتها، قال تعالى: ﴿... واتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ..﴾ [هود: ١١٦]، وفي المقابل مدح الله عز وجل الفئة القليلة المؤمنة التي قامت بهذا الواجب حيث قال الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [ال عمران: ١١٠] فالقيام به سبب في نجاتهم وعدم دمارهم، حيث قال تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦] ومن يحقق لهم النصر والغلبة على أعدائهم والتمكين في الأرض، فالفئة القليلة المؤمنة هي التي تقوم بهذا الواجب وتبتعد عن توبيخ الله لها بترك الدعوة ونصرة الدين.
والأمر الرباني للمسلمين بالجهاد في سبيل الله، حيث قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ* الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ* الَّذِينَ إِنْ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض أَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأمور﴾ [الحج: ٣٩-٤١] فسياق الآيات السابقة كلها يؤكد على صبرهم على أعدائهم ثم أمرهم بالجهاد حتى لو كانوا قلة بقوله:﴿ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ والقليل هم ورثة هؤلاء الأنبياء، ومن ثم تأييد الله لهم بالنصر على الأعداء والتمكين في الأرض، كيف لا ومعية الله عز وجل حاضرة معهم في أرض المعركة؟ حيث قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [ال عمران: ١٢٦]، وبذلك كتب الله النصر والتمكين والاستخلاف في الأرض للأنبياء وأتباعهم الفئة والقلة المؤمنة بعد أن كانوا مستضعفين في الأرض وذلك النصر بما ميزوا به من صفات حيث إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقبل هذا وذلك الصبر على أذى الأعداء فكانوا بحق يستحقون نصراً عظيماً.

إن للفئة المؤمنة دوراً عظيماً في نصرة الإسلام، حيث تدافع عنه بكافة الوسائل والأساليب حتى لو كلفهم ذلك أرواحهم، فعندما جاء الأمر الرباني بقتال المشركين لبّوا ذلك أعظم تلبية حيث قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ

(١) أنظر: الرازي، التفسير الكبير ٢٨/٤٩.
(٢) سنن أبي داوود، كتاب: أول الملاحم، باب: الأمر والنهي، رقم٤٣٤٠

فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩] ففي هذه الآية يأمر الله سبحانه وتعالى: المؤمنين بمقاتلة أهل الشرك قتالاً عنيفاً حتى لا يبقى شرك أبداً، ولا يعبد إلا الله وحده فيكون الدين كله لله وهو المقصود من الجهاد، فهو لم يجعل الكفار يعتدون على المسلمين ويأخذون أموالهم بالباطل، فيكون المؤمنين أذلة مستضعفين. والكفار عالين أقوياء فتحدث فتنة في الدين(١).

وكذلك وصف الله تعالى المؤمنين في موضع أخر فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] حيث بينت هذه الآية أن الله – سبحانه وتعالى استجاب دعوة المؤمنين، وهيأ لهم أسباب النصر، فنجد لهم عاقبة النصر بعد أن دعوا الله أن يخرجهم من القرية الظالم أهلها، وطلبوا من الله الولي والنصير، حيث إنهم يقاتلون في سبيل طاعة الله عز وجل(٢).

إن الصراع بين الفئة المؤمنة والكثرة والكافرة صراع ديني عقائدي وصراع دنيوي، وأن الفئة المؤمنة هدفها الدفاع عن الدين الإسلامي بكل ما آتاها الله من قوة، وأما الكثرة الكافرة فهدفها الدفاع عن الشرك ونشر الكفر في الأرض بكل ما أوتيت من وسائل وأساليب هذا من جهة الصراع من أجل الدين، وأما من جهة الصراع الدنيوي فالفئة المؤمنة هي التي تحاول أن تنشر العدالة، وتحفظ حقوق الناس، وتؤدي ما أمرها الله عز وجل، فالفئة المؤمنة هي المنتصرة بعقيدتها وأفكارها على الكثرة الكافرة المستكبرة التي حاولت أن تحتكر، وتقدم مصالحها على المصلحة العامة، حتى لو أدى ذلك إلى استعباد الناس، فحتماً سيكون الناس نتيجة ذلك الهلاك والهزيمة من الله عز وجل كما حدث لفرعون وغيره.

إن من يدافعون عن دين الله عز وجل كان حقاً على الله أن ينصرهم تحقيقاً لشرطه عز وجل، حيث إن الدفاع عن دين الله هو نصرة لله عز وجل، هذا وإن نصرة الدين الإسلامي نصرة لله عز وجل، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] أي: إن تطيعوا الله بنصرته ونصرة دينه ونبيه صل الله عليه وسلم، والجهاد في سبيله ينصركم على أعدائكم ويظفركم بهم، فإن الجزاء من جنس العمل وهو ناصر دينه وأولياءه(٣). والذي يؤكد على تحقيق النصر قوله تعالى: في سياق الآية: ﴿ويثبت أقدامكم﴾، وذلك بعد أن ذكر نصرتهم الله، حيث قال: ﴿... إن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ...﴾، وتثبيت الأقدام في أرض المعركة "عبارة عن النصر والمعونة في مواطن الحرب(٤).

يقول السيد قطب في سياق قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٤] وقوله: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧]، وفي كلتا الحالتين، حالة القتل وحالة النصرة، يشترط أن يكون هذا – والله – في سبيل الله وهي لفته بديهية، ولكن كثيراً من الغبش يغطي عليها عندما تنحرف العقيدة في بعض الأجيال وعندما تمتهن كلمات الشهادة والشهداء والجهاد وترخص، وتنحرف عن معناها الوحيد القويم، إنه لا جهاد ولا شهادة ولا جنة إلا حين يكون الجهاد في سبيل الله وحده والموت في سبيله، والنصرة له وحده، وفي ذات النفس وفي منهج الحياة.

إن نصرة الله عز وجل سبب من الأسباب البشرية لنصر الفئة والقلة المؤمنة على الكثرة الكافرة، وأنوه هنا أن نصرة الله لا تقتصر عليه فقط، بل تشمل نصر دينه بالجهاد في سبيل الله(٥).

المطلب الرابع: ميزان التوكل مع الأخذ بالأسباب، ومعية الله

ويعدّ التوكل شرطاً أساسياً للنصر حيث قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠] والمعنى في ذلك: أن الله أراد أن ينصر عباده المؤمنين فلا يمكن لأحد أن يغلبهم، وإن أراد خذلانهم وترك معونتهم فلا ناصر لهم، فحينما وقع لهم من النصر كيوم بدر أو من الخذلان كيوم أحد كله بمشيئة الله، فالأمر كله لله بيده العزة والنصرة والخذلان كذلك بيده، فعليه الاعتماد وحده في كل شيء.

(١) انظر: تفسير السعدي: ص٢٨٢، وهبة الزحيلي، التفسير المنير ٩/٣٢٢-٢٣٢.
(٢) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير ٥ /١٢١ – ١٢٢، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٥/١٨١.
(٣) انظر: الطبري، جامع البيان ١/ ٢٥-٥٣، الزمخشري، الكشاف ٤/١١٤٨، وفتح القدير: الشوكاني، ٥/٣١، الصابوني، صفوة التفاسير ٣/٢٠٧.
(٤) أنظر: الشوكاني، فتح القدير ٥/٣٩.
(٥) أنظر: سيد قطب، في ظلال القرآن ٦/٣٣٤٨.

فالآية السابقة مدح المؤمنين المتوكلين على الله تعالى في أشد الظروف وهي الحرب؛ لأنهم علموا أن كل شيء بيد الله تعالى فما عليهم إلا الاتكال والاعتماد عليه.

معية الله:

لا يمكن للإنسان أن يحقق أي أمر إلا بأمر الله عز وجل ومعيته، وهذا ما نلحظه من خلال غزوة بدر، حيث قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢] فمعية الله نعمة من النعم التي أيد الله بها المؤمنين في قتالهم مع عدوهم.

والمراد بالمعية: "معية الإعانة والنصر والتأييد في مواقف القتال الشديدة[١]. والمعية هنا مستحيلة إذ تحمل على المعية اللائقة بالله وهي المعية المجازية، فيكون المعنى توجه عنايته إليهم وتيسير العمل، وفي قوله (معكم) تشريف للملائكة وللعمل الذي سيقومون به، وهو مقدمة للتكليف بعمل شريف، فهو معهم في عملهم الذي يكلفهم به[٢]، ومعية الله عز وجل للملائكة هي من النعم الخفية التي أظهرها الله لهم ليشكروه عليها حيث ألهمم الملائكة أنه معهم، معية إعالة ونصر وتأييد، حينما أرسلهم ردءاً للمسلمين لينصروهم ويثبتوهم[٣].

إن معية الله عز وجل نعمة من نعم الله وسبب لتحقيق النصر على الأعداء، وقد امتثلها أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، فهذا أبو الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:٩٩]، ونبينا سيد الخلق تأسى بأبيه إبراهيم عندما كان في الغار ثاني اثنين فقال لصاحبه الصديق وهما في الغار: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وكذلك موسى عليه السلام صرخ بهذه المعية عندما تسرب اليأس إلى قلوب أتباعه أنهم مدركون فقال: ﴿كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦١/٦٢].

قال السعدي: قوله تعالى: ﴿كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦٢]، قالها موسى، مثبتا لهم، ومخبرا لهم بوعد ربه الصادق: كُلا أي: ليس الأمر كما ذكرتم، أنكم مدركون، إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ لما فيه نجاتي ونجاتكم[٤].

قال الطبري: سَيَهْدِينِ: أي للنجاة، وقد وعدني ذلك، ولا تُخلف لموعوده.

بهذا الجزم والتأكيد رد موسى على بني إسرائيل، وهو رد يدل على قوة إيمانه، وثبات يقينه، وثقته التي لا حدود لها في نصر الله- تعالى- له، وفي هدايته إياه إلى طريق الفوز والفلاح[٥].

أقلا نتأسى بهم ونستحضر معية الله عز وجل معنا في كل الأزمنة والأمكنة، وبكل الظروف المحيطة بنا، لننعم بهذه المعية، وتطمئن بها قلوبنا وننال سعادة الدارين؟؟

أهمية الإعداد والأخذ بالأسباب:

إن للإعداد أهمية كبرى لا تخفى على كل صاحب عقل؛ حيث بدون الإعداد والأخذ بالأسباب للمعركة، فإن أي جيش لا يستطيع خوض أي المعركة، ولقد جهّز النبي صلى الله عليه وسلم لكافة المعارك التي خاضها المسلمون على عهده، وكذلك جهّز أبو بكر جيش العسرة لقتال المرتدين وجهّز جميع الخلفاء الراشدين الجيوش والإعدادات اللازمة لخوض غمار الحروب مع الأعداء، وكان للإعداد دور عظيم في تحقيق النصر.

ولا يخفى على الدارس لتاريخ المسلمين، أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يغفل جانباً من الجوانب الروحية والنفسية والبدنية والعسكرية، وكما لم يهمل أي شريحة من شرائح المجتمع خلال عمليات الإعداد المختلفة، وهذا أمر له أهميته القصوى في تحقيق النصر، وثمة مقومات مادية عني بها النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يخوض غمار الحروب، وبذلك استوت عملية الإعداد على سوقها وآتت أكلها وثمارها الطيبة من خلال الانتصارات الساحقة التي تحققها، فلا بد من إعداد المسلم إعداداً كاملاً حتى يصبح مؤهلاً لخوض غمار الحروب بجدارة عالية وثقة واطمئنان.

(١) وهبة الزحيلي، التفسير المنير ٢٦٩/٩.
(٢) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير ٢٨١/٨.
(٣) انظر: وهبة الزحيلي، التفسير المنير ٢٦٩/٩.
(٤) أنظر: تفسير السعدي، ص٦٩٢.
(٥) أنظر: الطبري، جامع البيان، ٥٨/١٩

وكذلك بدون الصبر والتوكل لا يتحقق النصر، إذ كيف يذهب المجاهد لأرض المعركة دون التوكل على الله والآخذ بالأسباب؟ وكيف يذهب لأرض المعركة دون أن يهيئ نفسه بأنه قد يتعرض لأمور تستوجب منع الصبر، لذلك أمر الله عز وجل بالاتصاف بهما في غير موضع من القرآن الكريم، حيث قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [ال عمران: ٢٠٠] فهذه الآية دعوة للصبر والمصابرة، والصبر على مشاق الطاعات وما يصيب من الشدائد، والمصابرة أي: غلبة أعداء الله بالصبر على أهوال القتال وشدائد الحروب وكذلك ملازمة الثغور مستعدين للكفاح والغزو وذلك للفوز بسعادة الدارين(١).

فالمصابرة تعد عملاً أساسياً في تحقيق النصر، فالخصمان كلاهما يتألمان والأكثر صبراً وتحملاً هو الذي سينتصر في النهاية، وإن كان أهل الباطل يصبرون على ما أصابهم فأهل الحق أجدر بالصبر والمصابرة(٢).

ومن الطبيعي أنه عندما يلتقي أي جيشين فإن النصر والغلبة تكون للجيش الأكثر عدداً، والأقوى عدة، ولكن الحقيقية التي يؤمن بها كل مسلم أن العقيدة السليمة لها الأثر الكبير في تحقيق النصر حتى لو كانت الإعدادات قليلة وبدائية للغاية وغزوة بدر خير شاهد على ذلك.

فالعقيدة السليمة هي التي نصرت المسلمين في بدر والأحزاب ومؤتة وفي مواطن كثيرة، فلقد نصرهم الله عز وجل رغم أن أعدائهم أكثر عدداً وعدة.

ولقد أمرت الكثير من الآيات القرآنية ببذل الجهد مع الإعداد، استعداداً للقاء العدو وخوض الحروب معهم، ويعد بذل الجهد سبباً للنصر، بل يشمل أكثر الأسباب المؤدية للنصر، ومنها جهاد النفس والمال والوقت فكلها وغيرها من إعداد العدة والعتاد ومن أسباب تحقيق النصر.

أما بذل الجهد بالتضحية بالنفس قال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١] "فيه الأمر بالجهاد بالأنفس والأموال وإيجابه على العباد، فالفقراء يجاهدون بأنفسهم والأغنياء بأموالهم وأنفسهم، والجهاد من أكد الفرائض وأعظمها"(٣).

كذلك إن الجهاد لا بد له من بذل كل ما في وسع الإنسان من الأموال والعدة والعتاد من أسلحة ومعدات حتى يتحقق النصر، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٦٠] ففي الآية حث على الإنفاق في سبيل الله، وخاصة أنها جاءت في سياق الإعداد فكل شيء ينفقه الإنسان في سبيل الله مدخر له مادام أنفقه لله، أما الإنفاق الذي للشهرة والحصول على الثناء والتفاخر أو لقضاء مصالح فهذا إنفاق خارج الإنفاق في سبيل الله، أما الإنفاق في سبيل الله فإنه يرده للمؤمنين لا ينقص مما معهم شيئاً، حيث يدخر لهم أجورهم على ذلك في الدنيا من الفيء أو الخراج أو الجزية أو الغنائم، وفي الآخرة بالثواب المقيم يوفيها لهم أضعافاً مضاعفة على التمام والكمال(٤).

ولقد مدح الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لكونهم ينفقون في سبيل الله، فقال: ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٨٨-٨٩]، وفي المقابل ذم المنافقين الذين كرهوا بذل النفس والمال في سبيل الله حيث قال: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة:٨١] فهذه الآية تبيّن أن الجهاد في سبيل الله مع كونه من أجلّ الرغائب، وأشرف المطالب التي ينبغي على المؤمنين أن يتنافسوا فيها، فهؤلاء المنافقون كرهوا الإنفاق وفرحوا بالقعود خلاف رسول الله، بل وصوا إخوانهم تواصياً فيما بينهم بالشر والفساد أن لا ينفروا في الحر، فردّ الله عليهم: إن نار جهنم أشد حراً مما يحذرون من الخروج للقتال(٥).

(١) انظر: الصابوني، صفوة التفاسير، ٢٥٤/١.
(٢) أنظر: أحمد بحر، عوامل النصر، ص٢٧.
(٣) أنظر: الشوكاني، فتح القدير ٤٦٤/٢.
(٤) انظر: الطبري، جامع البيان ٣٩/٩، القاسمي، مدارك التنزيل ٣٠٢٦/٨، تفسير السعدي: ص٢٨٦.
(٥) انظر: الصابوني، صفوة التفاسير ٥٥٣/١.

ولم يقتصر الجهاد في سبيل الله بالتضحية بالنفس والمال، بل يشمل أيضاً التضحية بالوقت وهي عن طريق الرباط، حيث يخرج المجاهد للرباط في سبيل الله تاركاً الوالدين والزوجة والأولاد، ولقد أمر المولى سبحانه بذلك فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [ال عمران: ٢٠٠] فقوله ﴿ورابطوا﴾ أي: أقيموا في الثغور رابطين خليكم فيها كما يربطها أعداؤكم(١).

كما حدثت الكثير من الأحاديث النبوية على الرباط وفضله، حيث قال صلى الله عليه وسلم: (رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها)(٢).

وقال أيضاً: (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل وأجري عليه رزقه وأمن الفتان)(٣).

وعندما سئل صل الله عليه وسلم أي الناس أفضل؟ قال: (رجل يجاهد في سبيل الله بماله ونفسه، قال: ثم من؟ قال: مؤمن في شعب من الشعاب يعبد الله ربه ويدع الناس من شره)(٤).

إن الجهاد بحاجة إلى بذل الجهد والوسع من أجل تحقيق النصر، وأن البذل والتضحية تشمل أنواعاً عديدة منها بذل النفس والمال والوقت.

المطلب الخامس: ميزان العدالة ونصرة المظلوم

أهمية الأخلاق:

إن للأخلاق أهمية عظيمة، بدونها لا يصبح للمجتمع فيه مكانة بين المجتمعات الأخرى، وتصبح الأسر فيه مفككة لا يضبطها ضابط وتكون معرضة للدمار والخراب قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] حيث استعظم خلقه فلقد كان صلى الله عليه وسلم على الخلق الذي أمره الله به في القرآن الكريم، من رفقه بأمته وإكرامه إياهم والعفو والأمر بالعرف والإعراض عن الجاهلين(٥).

والأخلاق في الإسلام لها أهمية بالغة، فهي الروح التي تسري في كل التشريعات من عبادات وعادات ومعاملات ونظم وآداب وهي الأصل الثابت في كل أحكامه أوامره ونواهيه، سواء منها ما تعلق بالفرد أو بالأسرة أو بالمجتمع أو بالحكم أو العلاقات الدولية(٦).

ونظراً لأهمية الأخلاق فيجب على المسلم أن يستمد خلقه من القرآن الكريم ومن سنة النبي صلى الله عليه وسلم وهديه القويم، ولا يجعل خلقه حسب هواه، بل لا بد أن يكون سجيه وملكة يعرف ويميز به على أن يكون مقتدياً برسوله محمد صلى الله عليه وسلم حيث كان قرآناً يمشي على الأرض.

ومن أهم الأخلاق التي تجب على المسلمين، وتعد ميزاناً هاماً لنصرتهم وتمكينهم، خلق العدل والإنصاف للخلق وعدم الظلم أو التظالم فيما بينهم، قال تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤] .

أي: أن هؤلاء الذين لا يظلمون قليلون بالنسبة إلى غيرهم من الخلطاء الظالمين الذين يبغون على شركائهم، أي: (قليل من لا يبغي)(٧) أو: (قليل الذين هم فيه)(٨)، (وهم قلة نادرة)(٩).

وهؤلاء القليل الذين لا يظلمون، هم الصالحون القليلون في كل زمان ومكان، وقد أراد داود عليه السلام بوصف القلة هنا ذكر حال هؤلاء القليل الذين هم لا يظلمون ولا يبغون على سبيل (الموعظة الحسنة والترغيب في إيثار عادة

(١) الشوكاني، فتح القدير، ٥٢٢/١.
(٢) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: رباط يوم في سبيل الله، رقم٢٨٩٢
(٣) صحيح مسلم، كتاب: الإمارة، باب: فضل الرباط في سبيل الله عز وجل، رقم١٩١٣.
(٤) المرجع السابق: باب فضل الجهاد والرباط، رقم١٨٨٨.
(٥) انظر: الزمخشري، الكشاف ١٢٧٣/٤، الشوكاني، فتح القدير ٣٣٢/٥.
(٦) أنظر: المرجعان السابقان (بتصرف)
(٧) أنظر: الأيباري، الموسوعة القرآنية ٦٨/١١
(٨) تفسير ابن أبي حاتم، ٣٢٤٠/١٠.
(٩) أنظر: الأيباري، الموسوعة القرآنية، ٦٧٦/١

الخلطاء الصلحاء الذين حكم لهم بالقلة، وأن يكرّه إليهم الظلم والاعتداء الذي عليه أكثرهم، مع التأسف على حالهم وأن يسلي المظلوم عما جرى عليه من خليطه، وأن له في أكثر الخلطاء أسوة)[1].

فكل ظالم له نهاية وعاقبة كما أن لكل مؤمن نهاية وعاقبة، فعلى المسلمين أن يأخذوا على يد الظالم لما له من مصلحة الأمة والتمكين في الأرض والعاقبة الحسنة والطيبة، وان كانت قليلة ومستضعفة، قال تعالى: ﴿قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]

والسبب في ذلك من جانب الحكمة: أن الدواعي إلى لذات الدنيا كثيرة والمشي مع الهوى محبوب ومجاهدة النفس عزيزة الوقوع، فالإنسان محفوف بجواذب السيئات، وأما دواعي الحق والكمال فهو الدين والحكمة وفي أسباب الكمال إعراض عن الشهوات وهو إعراض عسير لا يسلكه إلا من سما بدينه وهمته إلى الشرف النفساني وأعرض عن الداعي الشهواني، فذلك هو العلة في هذا الحكم بالقلة[2].

فعباد الله العادلون مؤيدون منصورون، قال تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ} [الصافات:١٧١-١٧٣].

وإذا كانت القلة المؤمنة مع طالوت قد وعت هذه السنة الربانية فإن الله تعالى قد منّ بها على القلة المؤمنة مع رسول الله صل الله عليه وسلم، إذ ذكرهم بذلك فقال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال:٢٦].

فهذه منة يمن الله تعالى بها على عباده، أنهم كانوا قليلا فكثرهم وأيدهم بنصره، ومدهم بمدده.

وهناك آيتان نختم بهما، ففيهما الرؤية الواضحة والميزان العادل، فقد أمر الله خلقه بالعدل قبل كل الأخلاق، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

قال السعدي: فالعدل الذي أمر الله به يشمل العدل في حقه وفي حق عباده، فالعدل في ذلك أداء الحقوق كاملة موفرة بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية والمركبة منهما في حقه وحق عباده، ويعامل الخلق بالعدل التام، فيؤدي كل وال ما عليه تحت ولايته سواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرى، وولاية القضاء ونواب الخليفة، ونواب القاضي، والعدل هو ما فرضه الله عليهم في كتابه، وعلى لسان رسوله، وأمرهم بسلوكه، ... فالعدل واجب، والإحسان فضيلة مستحب وذلك كنفع الناس بالمال والبدن والعلم، وغير ذلك من أنواع النفع حتى إنه يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره.... فصارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات، لم يبق شيء إلا دخل فيها، فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات، فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى فهي مما أمر الله به. وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغي فهي مما نهى الله عنه، وبها يعلم حسن ما أمر الله به وقبح ما نهى عنه، وبهما يعتبر ما عند الناس من الأقوال وترد إليها سائر الأحوال، فتبارك من جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور والفرقان بين جميع الأشياء، ولهذا قال: يَعِظُكُمْ بِهِ أي: بما بينه لكم في كتابه بأمركم بما فيه غاية صلاحكم ونهيكم عما فيه مضرتكم. لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ما يعظكم به فتفهمونه وتعقلونه، فإنكم إذا تذكرتموه وعقلتموه عملتم بمقتضاه فسعدتم سعادة لا شقاوة معها[3].

ثم بين سبحانه وتعالى على من تكون المؤاخذة والمعاقبة، ومن يحل بميزان العدل، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى:٤٢].

بين — سبحانه – على من تقع المؤاخذة والمعاقبة فقال: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

أي: إنما المؤاخذة والمعاقبة كائنة على الذين يظلمون غيرهم من الناس، ويتكبرون ويتجاوزون حدودهم في الأرض بغير الحق.

وقيد – سبحانه– البغي في الأرض بكونه بغير الحق، لبيان أنه لا يكون إلا كذلك، إذ معناه في اللغة تجاوز الحد.

يقال: بغى الجرح، إذ تجاوز الحد في فساده، فهذا القيد إنما هو لبيان الواقع، وللتنفير منه.

---

(١) أنظر: الزمخشري، الكشاف، ٨٧/٤.

(٢) أنظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير ٢٣٦/٢٣.

(٣) أنظر تفسير السعدي، ص٥١٢

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: أولئك الذين من صفاتهم الظلم والبغي لهم عذاب أليم، بسبب ما اجترحوه من ظلم وبغى(١).

فلا شك أن إقامة العدل وأداء الحقوق لأهلها من أسباب بقاء الدول وتفوقها وغلبتها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة (الحسبة): الجزاء في الدنيا متفق عليه أهل الأرض، فإن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة، ولهذا يروى: "الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة" اهـ(٢).

الأمة الواعية كذلك هي التي تدرك أنها بتجرئها على المعاصي وابتعادها عن منهج القرآن وموازينه الربانية، وشريعة خالقها، تجلب عليها سخط الله الذي قد يتسبب في أن يبعث عليها من يسومها – بسبب معاصيها وانحرافها– سوء العذاب، وتكون له الغلبة والظهور.

قال الألباني معلقاً على كلام ابن تيمية في باب الحسبة:

معروف من السنن الإلهية الكونية أن أي دولة تطبق العدالة فيها تعيش في سلام ووئام ولا يقوم الشعب ضدها بغض النظر عن دينها وعقيدتها، والعكس بالعكس لما تكون الدولة في عقيدتها موحدة تماماً توحيد سلفي ما بعده أتم منه لكنها تظلم الأمة ولا تقدم إليها حقوقها فهذا الظلم سيكون سبباً لإثارة الشعب ضد هذا الحاكم المسلم والمعتقد العقيدة الصحيحة لأنه لا يطبق العدالة في الشعب الذي هو حاكم عليه، وهذا ما في شيء يمنعه إطلاقاً، وهناك آية تشير إلى هذا المعنى، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:١١٧].

فقد فسرت كلمة ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ يعني غير ظالمين ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ وإن كان المعنى الذي نفهمه نحن هو أعم من ذلك مصلحون يعني إصلاحاً كاملاً أي مسلمون لأنه لا يتصور إسلام وظلم كما شرحنا آنفاً بالنسبة لبعض الأفراد الذي ينبغي أن يتمسك بالإسلام فسوف يتحقق فيه العدل، كما يتحقق فيه الخلق الصحيح أو الحسن كله وكما تتحقق في نفسه وفي قلبه العقيدة الصحيحة.

(يرى الباحث أن تعليق وكلام الشيخ الألباني على ابن تيمية – رحمه الله – صحيح وهو مما تحقق بعدهما في العصور المتأخرة، وان كان مرجعية الباحث لكلام الشيخ الألباني من المصادر الصوتية للشيخ رحمه الله).

وفي نهاية هذه الدراسة يؤكد الباحث: بأن وعد الله سبحانه وتعالى بالتمكين سوف يتحقق لعباده المتقين إذا التزموا بالموازين القرآنية فيهم التي وضحها لهم في كتابه العزيز من الإيمان والعمل الصالح والأخذ بالأسباب والقيام بفريضة الجهاد والصبر وبذل الجهد لنصرة الدين .... الخ.

الخاتمة:

الحمد لله كثيراً كما ينعم ويجزل كثيراً، الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات.... وبعد:

فإن من أهم النتائج لهذه الدراسة الآتي:

- موازين القرآن الكريم تقرر نوع نتيجة (العاقبة) المدافعة.
- التدافع والمدافعة من سنن الله في خلقه، الضابطة والمهيمنة والتي تجري باطراد وثبات، وعموم وشمول مرتباً على سلوك الخلق سلباً أو إيجاباً لتعطي العاقبة المستحقة.
- التدافع والصراع بين الفئات هو صراع عقائدي وصراع دنيوي والمنتصر والعاقبة في النهاية للعقيدة السليمة ونصرة الدين ليتحقق التمكين.
- الإيمان والعمل الصالح وإقامة الحق والعدل، ونشر الطمأنينة، والتعايش السلمي، وتحكيم الشريعة الإسلامية في كل شؤون الحياة، موازين قرآنية تمنح العاقبة الحسنة.
- لا جهاد ولا شهادة إلا حين يكون الجهاد في سبيل الله وحده، والنصر له وحده، ونصرة الدين للتمكين.
- ميزان الإعداد بأنواعه له أهمية عظيمة في تحقيق النصر.
- إن الالتزام بموازين التدافع يحقق النصر والغلبة والتمكين في الأرض.

(١) المرجع السابق:٩٠١.

(٢) أنظر، ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، باب الحسبة.

- أهمية القيام بواجب الجهاد في سبيل الله ونصرة الدين لأنه سبيل إلى تحقيق النجاة وهي فريضة مستمرة إلى قيام الساعة.
- ليس العبرة بالقلة والكثرة وإنما هي موازين ربانية جاءت من خلال القرآن الكريم، فجعلت العبرة بالإيمان والعمل الصالح والصبر ونصرة الدين وحسن التوكل مع الأخذ بالأسباب التي تستوجب معية الله.
- كل ظالم له نهاية وعاقبة كما أن لكل مؤمن نهاية وعاقبة، فعلى المسلمين أن يأخذوا على يد الظالم لما له من مصلحة الأمة والتمكين في الأرض والعاقبة الحسنة.
- لا ينال النصر إلا بعد طول البلاء وشدة المحنة وتمحيص النفوس ضعيفة الإيمان من القوية.
- الجهاد فريضة مستمرة إلى قيام الساعة وبها العزة والكرامة والسلطان وبدونه يكون الذل والانحطاط والعاقبة تكون لأهل الشر والفساد.
- إن الفئة المؤمنة تستحق في ميزان الله إن ينصرها الله على أعدائها ويتولاها ويؤيدها ويجري لها من المعجزات الكونية ما لا تتصورها العقول البشرية بعد أن تأخذ بالأسباب وتتعلق بخالقها وتستشعر معيته.
- إن الله وعد المؤمنين بالتمكين في الأرض ولن يتحقق التمكين إلا بعد تحقيق سنن الله في التمكين مثل الصبر على الابتلاء والأخذ بالأسباب والاهتمام بسنة التدافع وفق الموازين القرآنية التي وضحتها هذه الدراسة.

وختاماً إن كان هناك من توصيات تعزز من هذه الدراسة وتشد من أزرها:

- يوصي الباحث طلاب العلم والدارسين بالخوض في غمار القرآن والبحث في آياته وكشف أسراره لاستكمال صرح العلم في مثل هذه الدراسات، فالتدافع سنة الله في خلقه ومستمرة إلى قيام الساعة ولن يكون التمكين إلا لعباده الصالحين.
- الاهتمام بشريحة الشباب واعدادهم إعدادا سليما على نهج القران وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم.
- كما يوصي الباحث نفسه ومن له صلة بهذا المجال من العلماء والمصلحين والدعاة لمخالطة الناس وتعليمهم وتوجيههم وتربيتهم والصبر عليهم، وان لا يكتفوا بالتأليف والكتابة والمحاضرة.
- كما يوصي الباحث كل فرد من أفراد الأمة أن يكون مخلصاً لأمته وأن يشارك ما استطاع وفق ما يملك من قدرات وطاقات لاستحقاق الاستخلاف والتمكين في الأرض.

والحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والله وحده هو الموفق لعباده في كل وقت وحين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

قائمة المراجع:

ابن تيمية، أحمد بن عبدا لحليم (١٤٣٢هـ-٢٠٠٢م)، مكارم الأخلاق، المكتبة العصرية، القاهرة.

ابن تيمية، أحمد بن عبدا لحليم، كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ط٢، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن قاسم النجدي، مكتبة ابن تيمية، الرياض.

ابن عاشور، محمد الطاهر(١٤٢٠هـ)، التحرير والتنوير، ط١، مؤسسة التاريخ، بيروت.

ابن قيم الجوزية (١٤٠٧هـ)، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ت: سعيد محمد اللحام، ط١، دار إحياء العلوم بيروت.

ابن قيم الجوزية (١٩٧٣م)، مدارج السالكين، ت: محمد حامد الفقي، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت.

ابن قيم الجوزية، الفوائد، تخريج: محمد خلف يوسف، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة.

ابن كثير، الحافظ الدمشقي(١٤٠٦هـ-١٩٨٦م)، تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، بيروت.

ابن منظور(١٤١٣هـ-١٩٩٣م) لسان العرب: ط٣، دار إحياء التراث، بيروت.

الأزهري، أبو منصور محمد ابن أحمد، تهذيب اللغة، (نسخة الكترونية).

الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، ط١، دار الكتب العلمية – بيروت.

الأيباري، إبراهيم بن إسماعيل (١٤٠٥هـ)، الموسوعة القرآنية، مؤسسة سجل العرب، القاهرة.

البغوي، الحسين بن مسعود (١٤٠٦هـ)، معالم التنزيل، ت: خالد بن عبدا لرحمن العك، ومروان سوار، ط١، دار المعرفة، بيروت.
البيضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي (١٤١٨هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ط١، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي– بيروت.
التفسير الميسر (١٤٣٠هـ)، لجنة من العلماء، مجمع الملك فهد لطباعة الأزهر الشريف، المدينة المنورة.
التفسير الوسيط للقرآن الكريم (١٤١٣هـ-١٩٩٢م)، لجنة من العلماء، إشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ط٣، مطبعة الأزهر الشريف، القاهرة.
الجرجاني، علي بن محمد بن علي، التعريفات، ط١، دار الكتاب العربي: بيروت.
الجرمي، إبراهيم محمد (١٤٢٢هـ-٢٠٠١م) معجم علوم القرآن، ط١، دار القلم دمشق.
الخالدي، صلاح عبد الفتاح(١٤٠٧هـ-١٠٧٨م)، في ظلال الإيمان، ط١، مكتبة المنار، الأردن، الزرقاء.
الرازي، محمد بن أبي بكر (١٤١٨هـ)، مختار الصحاح، ط٣، المكتبة العصرية، بيروت.
الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، دار المنار.
الرازي، محمد بن عمر بن الحسين(١٤٢١هـ)، التفسير الكبير، ط١، الكتب العلمية، بيروت.
الراغب الأصفهاني(١٤٢٨هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد خليل عتياني، دار المعرفة، بيروت.
الزمخشري، أبو القاسم محمود (١٤٣١هـ)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، ط٢، دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت.
السعدي (تفسير السعدي)، عبد الرحمن بن ناصر(١٤٢٦هـ)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير الكلام المنان، ط٢، دار ابن الجوزي، الدمام.
السعدي، عبد الرحمن بن ناصر(١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م)، القواعد الحسان في تفسير القرآن، شرح الشيخ: محمد ابن صالح العثيمين، ط١، دار الغد الجديد، المنصورة، مصر.
سعيد حوى (١٤٠٥هـ)، الأساس في التفسير، ط١، دار السلام، بيروت.
سيد قطب، (١٤٠٧هـ) في ضلال القرآن، ط٣، دار الشروق، القاهرة.
الشوكاني، محمد علي محمد (ت: ١٤١٨هـ-١٩٩٧م) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير.
الصابوني، محمد علي، صفوة التفاسير، ط١٥، دار الصابوني، دمشق.
الصلابي، علي بن محمد (٢٠٠٢م)، فقه التمكين في القرآن، ط١، دار الإيمان، الإسكندرية.
الطبري، محمد بن جرير (١٤٠٥هـ) جامع البيان عن تأويل أي القرآن، دار الفكر، بيروت.
عبد الفتاح، إبراهيم أحمد (١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م) القاموس القويم للقرآن الكريم، ط١، دار الكلمة، المنصورية
عبد الفتاح عساكر، مع القرآن الكريم، ط٢، المركز الثقافي المقاولون العرب، القاهرة.
الغزالي، محمد، كيف نتعامل مع القرآن، ط١، دار الوفاء، المنصورة.
الفيروز آبادي (١٤١٢هـ-١٩٩١م) القاموس المحيط: ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
القاسمي، محمد جمال الدين(١٤١٥هـ)، محاسن التأويل، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
القرضاوي، يوسف (١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م)، ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت.
القرطبي (١٤١٤هـ)، محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، ت: د. محمد إبراهيم الحفناوي، د. حمود حامد عثمان، ط١، دار الحديث، القاهرة.

الكفوي، أبو البقاء(١٤١١هـ)، الكليات، ط١، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت.
الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد(١٤٠١هـ)، أدب الدنيا والدين، ط١، دار اقرأ، القاهرة.
محمد الغزالي (١٤١١-١٩٩١م)، المحاور الخمسة للقران الكريم ط١، دار القلم، بيروت.
محمد الغزالي (١٤٠٥هـ-١٩٨٥م)، سر تأخر العرب والمسلمين، ط١، دار الصحوة، القاهرة.
محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ط٢، دار المعرفة، بيروت.
محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن (نسخة الكترونية).
المراغي، تفسير المراغي، ط: بدون، دار الفكر، بيروت.
المعجم الوسيط، جماعة من الباحثين، أصدره مجمع اللغة العربية بمصر، المكتبة الإسلامية، تركيا.
المناوي، محمد عبدالرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف، ت: د. محمد رضوان الدايه، ط١، دار الفكر، بيروت.
المودودي، أبو الأعلى المودودي، كيف نفهم القرآن ترجمة خليل: أحمد الحامدي (٤٠٧هـ-١٩٨٧م)، ط٢، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة.
النسفي، عبدا لله بن احمد بن محمود، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
وهبة الزحيلي، مصطفى، (١٤١٨هـ)، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ط٢، دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق.